١ - الإِعْلَامُ

بأَنَّ التَّصُوَّفَ مِن شَريعَةِ الإسلامِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي منحَ أولياءَهُ جَزيلَ عطائِهِ، ووهبَ أصفياءَهُ جليلَ حِبائِهِ، تجلَّىٰ لهم بمظهرٍ مِن مظاهرِ أسمائِهِ، فتاهت عقولهم في مشاهدة عظمته وكبريائه، وطافت أرواحهم هائمةً في قُدسِ سَنائِهِ، وأفناهم عن أنفسهم فلم يشاهدوا سِواه في أرضه وسَمائِهِ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له شهادةً ندَّخرها ليوم لقائه، ونستوْجِب بها جميل جَزائه، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّدًا عبده ورسوله أفضل رسله وأنبيائه، أفاض عليه مولاه من أنواع العلوم والمعارفِ ما تَنوء الجبالُ الشُمُّ بحمل أعبائه، صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم صلاةً وسلامًا خالديْن مع خلود الدهر باقييْن بعد فنائه، ورضي الله عن آله الكرام حُماة الدِّين الدافعين عنه بالسيف والبرهان حَمَّلات أعدائه، وعن أصحابه الفِخام، والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ قيام الساعة وساعة القيام.

أما بعد: فإنَّ التصوف كبيرٌ قَدْرُه، جليلٌ خطره، عظيمٌ وَقْعُه، عميقٌ نَفْعُه، أنواره لامعة، وأثماره يانعة، واديه قريعٌ خصيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يُزَكِّي النَّفس من الدَّنَس، ويُطَهِّرُ الأنفاسَ من الأرجاس، ويُرقِّي الأرواح إلىٰ مراقي الفلاح، ويُوصِلُ الإنسان إلىٰ مرضاة الرحمن.

وهو إلىٰ جانب هذا ركنٌ من أركان الدِّين، وجزءٌ مُتمِّمٌ لمقامات اليقين، خلاصته: تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كلِّ الشؤون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب أو مُقاربة محظور.

كثرت أقوال العلماء في تعريفه، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه ومُسَمَّاه، يُنبئ عن سموِّ غايته ومرماه.

فقيل: «التصوف: الجِدُّ في السلوك إلى مَلِكِ المُلوكِ».

وقيل: «التصوف: الموافقة للحقِّ، والمفارقة للخَلق».

وقيل: «التصوف: ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة».

وقيل: «التصوف: الرغبة إلى المحبوب في درك المطلوب».

وقيل: «التصوف: حفظ الوفاء وترك الجفاء».

إلى غير هذا من الأقوال التي تبلغ نحو ألفٍ، حكاها الحافظ الصوفيُّ أبو نعيم الأصفهانيُّ في كتابه "حِليةُ الأولياء".

وسُئل الإمام أبو القاسم الجُنيد -سيِّد الطائفة- عن التصوف، فقال: «تصفية القلب عن موافقة البَرِيَّة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشريَّة، ومجانبة الدَّواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الرُّوحانية، والتعلُّق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أَوْلى على الأبديّة، والنُصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتِّباع الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الشريعة».اهـ

ولعل هذا أبلغ ما قيل في التصوف وكَشْف حقيقته.

وإنْ كانت الأقوال السابقة مختلفة في اللفظ والمبنى، فهي متفقة في الغاية والمعنى، وإنما عبَّر كلُّ قائلٍ بحسب مَدْرَكِه ومَشْرَبِه.

وعلى نحو اختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه.

فقال الإمام أبو عليٍّ الرُّوذَبارِيُّ -وقد سُئل عن الصوفي-: «مَن لبس

الصُّوفَ على الصَفا، وأطعمَ الهوى ذوقَ الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم».

وقال الإمام سهل بن عبدالله التُّسْتَرِيُّ: «الصوفي مَن صفا عن الكَدَر، وامتلأ من الفِكَر، وانقطعَ إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمَدَر».

وأنشد الإمام تقي الدين السُّبكي:

تنازع النَّـاسُ في الصُّـوفيِّ واختلفـوا قِدْمًا وظنُّوه مُشْتقًّا مِن الصُّـوفِ

ولستُ أَنْحَل هذا الاسـمَ غـير فتًـى صافى فصُوفِي حتَّى لُقِّبَ الصُّـوفِي

وهذان البيتان لأبي الفتح البُستي.

وقال العلامة الشيخ محمد ميارة المالكي في "شرح المرشد المعين": «وفي اشتقاق التصوّف أقوال، إذ حاصله اتصافٌ بالمحامد وترك للأوصاف المذمومة، وقيل: من الصفاء».

وقال المحقِّق أبو حفص الفاسي المالكي: «ظهر لي أنه منسوب إلى الصوف، لأنه في الغالب شِعاره ودِثاره، ولأن هذا اللفظ -يعني لفظ صوفي- مشتمل على ثلاثة أحرف منقطعة من ثلاث كلمات، دالة على ثلاث معان هي أوصافه المختصة به: فالصاد من الصفاء، والواو من الوفاء، والفاء من الفناء».

قال العلامة ابن الحاج: وقد أشرت إلى ذلك في ثلاثة أبيات، فقلت:

صَفا منهلُ الصُّوفيِّ عـن عِلَـلِ الهـوى فما شابَ ذاك الوردَ مِن نفسِهِ حَظٌّ

ووَفَّى بعهـدِ الحـبِّ إذ لم يكـن لـه إلى غير مَن يهوى التفاتٌ ولا لَحْظُ

مَحَـتْ آيـةَ الإظـلامِ شـمسُ نهـارِهِ وقد ذهبتْ منـه الإشـارةُ واللفـظُ

ثم إنَّ التصوف مبنيٌّ علىٰ الكتاب والسُّنَّة، لا يخرج عنهما قيد أنملة.

قال الإمام الجُنيد: «عِلمنا هذا مشيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة».

وقال أيضًا: «الطريق إلىٰ الله تعالىٰ مسدودٌ إلا علىٰ المقتفين آثار رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم».

وقال سهل التُّسْتَري -أحد أئمة القوم-: «أصولنا سبعة أشياء: التمسُّك بكتاب الله، والاقتداء بسُنَّة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وأكل الحلال، وكفُّ الأذىٰ، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق».

وقال أبو العباس الملثَّم -أحد كبار الصوفية-: «لم تكن الأقطاب أقطابًا، والأوتاد أوتادًا، والأولياء أولياءً، إلا بتعظيمهم رسولَ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ومعرفتهم به، وإجلالهم لشريعته وقيامهم بآدابه».

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي الغُماري: «مَن دعا إلىٰ الله تعالىٰ بغير ما دعا به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فهو مُدَّعٍ».

وقال: «ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر علىٰ الأوامر، واليقين في الهداية، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

وقال أيضًا: «ما ثَمَّ كرامة أعظم مِن كرامة الإيمان ومتابعة السُّنَّة، فمن أُعطيهما وجعل يشتاق إلىٰ غيرهما فهو عبد مُفْتَرٍ كذَّاب، أو ذو خطأ في العلم بالصواب، كمن أُكرمَ بشهادةِ المَلِك فاشتاق إلىٰ سياسة الدواب».

وقال تاج الدين السُّبكي في "جمع الجوامع" -وهو من الكتب المقررة في

الأزهر-: «ونرىٰ أن طريق الشيخ الجُنيد وصَحبِه طريقٌ مُقوَّم».

قال شارحه الجلال المحلِّي: «فإنه خالٍ مِن البِدَعِ، دائرٌ علىٰ التسليم والتفويض والتبرِّي مِن النَّفْس».

وقال التاج السُّبكي أيضًا في كتابه "مُعيد النِّعم ومُبيد النِّقم": «الصوفية حيَّاهم الله وبيَّاهم، وجمعنا في الجنَّة نحن وإيَّاهم، وقد تشعَّبت الأقوال فيهم تشعُّبًا ناشئًا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبِّسين بها، والصحيح أنهم المُعرِضون عن الدنيا، المُشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة. ومن ثَمَّ قال الجُنيد: «التصوّف استعمال كل خُلُقٍ سَنِيٍّ، وترك كلُ خُلُقٍ دَنِيٍّ». وقال أبو بكر الشبلي-تلميذ الجُنيد-: «التصوف: ضبط حواسِّك، ومراعاة أنفاسك». وقال ذو النون المصري: «الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق». وقال علي بن بُنْدار -تلميذ الجُنيد-: «التصوف: إسقاط رؤية الخَلْقِ ظاهرًا وباطنًا». وهذه عبارات متقاربة.

والحاصل: أنهم أهل الله وخاصَّتُهُ، الذين تُرتجىٰ الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنَّا بهم. وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: «جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضَّلهم علىٰ الكافَّة مِن عباده، بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، جعل الله قلوبهم معادن أسراره، واختصَّهم بين الأُمَّة بطوالع أنواره، فهُمُ الغِياث للخَلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحقِّ، ومِن أوصاف هذه الطائفة: الرأفة والرحمة والعفو والصفح وعدم المؤاخذة».

وقد كثُر في هذا الزمان الذي طغىٰ شرُّه علىٰ خيره، من يُنكر التصوف ويزعُم أنه دخيلٌ علىٰ الإسلام، جاء به مُسْلِمةُ الكتابيين والبوذيين ومَنْ علىٰ شاكلتهم، وأنَّ الصوفية أصحاب بِدعٍ وخرافات، إلىٰ غير ذلك مِن الدَّعاوىٰ التي يأباها العقل، ويُكذِّبها النقل، فانتُدبنا لإبطالها بهذا الكتاب الذي نرجو الثواب عليه من الله تعالىٰ، والتزمنا فيه إيراد الأدلة من الكتاب والسُّنَّة، وقَصَدْنَا إيضاح الدلالة بعبارةٍ مبسَّطةٍ هادئةٍ خاليةٍ من التعقيد، مع الاستشهاد بكلام أئمة المسلمين وعلمائهم، ومن الله نستمد المعونة والتوفيق.

فتوى لمولانا الإمام الوالد رضي الله عنه

في فتوىٰ لمولانا الشيخ الإمام الوالد -رضي الله عنه- أجاب بها من سأله عن أول مَن أسَّس الطريقة، وهل تأسيسها بوحيٍ سماوي؟

جاء فيها: «وأما أول من أسَّس الطريقة، وهل تأسيسها بوحي...؟ إلخ. فلتعلم أنَّ الطريقة أسَّسها الوحيُ السماوي في جملة ما أُسِّسَ في الدِّين المُحمديِّ، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدِّين الثلاثة التي جعلها النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم -بعد ما بيَّنها واحدًا واحدًا- دينًا، فقال: «**هذا جبريلُ جاءَ يُعلِّمُكم دينكُم**».

فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتُشير إليه هو مقام الإحسان، بعد تصحيح الإسلام والإيمان، ليُحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدِّين الثلاثة، الضامنة لُمحرِزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضًا لُمحرِزها كمال الدين، فإنه -كما في الحديث- عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخلَّ بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك؛ لتركه ركنًا من أركانه، ولهذا نصَّ المحقِّقون علىٰ وجوب الدخول في الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوبًا عينيًّا، واستدلوا علىٰ الوجوب بما هو ظاهر عقلًا ونقلًا، ولسنا بصدد بيان ذلك الآن.

وقد بَيَّن القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية، فتكلَّم علىٰ المراقبة، والمحاسبة، والتوبة، والإنابة، والذكر، والفكر، والمحبة، والتوكل، والرضا، والتسليم، والزهد، والصبر، والإيثار، والصدق، والمجاهدة، ومخالفة

الهوىٰ والنفس.

وتكلم علىٰ النفس اللّوامة والأمّارة والمُطمئنّة، وعلىٰ الأولياء والصالحين والصِّدِّيقين والمؤيَّدين، وغير هذا مما يتكلَّم فيه أهل التصوف والطريقة رضي الله عنهم، فاعرف وتأمَّل.

وأما قولك: هل لَمَّا أُسِّست الطريقة...؟ إلخ. فجوابه يُعلم مما قبله، فإنها إذا كانت من الدين -بل هي أشرف أركانه- وكانت بوحي كما قلناه، وكان الصحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم تواترًا من المسارعة إلىٰ امتثال أمر الله، كانوا بالضرورة أول داخلٍ فيها وعاملٍ بمقتضاها وذائقٍ لأسرارها وثمراتها، ولهذا كانوا علىٰ غاية ما يكون من الزهدِ في الدنيا والمجاهدةِ لأنفسهم ومحبة الله ورسوله والدار الآخرة، والصبر والإيثار والرضا والتسليم، وغير ذلك من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله وتُوصلُ إلىٰ قربِها، وهي المُعبّر عنها بالتصوف والطريقة.

وكما كانوا رضي الله عنهم علىٰ هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضًا عليها -وإن كانوا دونهم فيها- وكذلك كان أتباع التابعين... وهلُمَّ جرّا، إلىٰ أن ظهرت البِدع وتأَخّرت الأعمال وتنافس الناس في الدنيا، وحَيِيَت النفوس بعد موتها فتأَخَّرت بذلك أنوار القلوب، ووقع ما وقع في الدِّين وكادت الحقائق تنقلب، وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولىٰ من الهجرة ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد سنة إلىٰ أن وصل ذلك إلىٰ حالة تخوَّف منها السلف الصالح علىٰ الدين، فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف.

فقامت طائفة منهم لحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده، وقامت

أخرىٰ بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده علىٰ ما كان عند سلفهم الصالح، وقامت أخرىٰ بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله.

فكان من الطائفة الأولىٰ: الأئمة الأربعة وأتباعهم رضي الله عنهم، وكان من الطائفة الثانية: الأشعري وأشياخه وأصحابه، وكان من الطائفة الثالثة: الجُنيد وأشياخه وأصحابه.

فعلىٰ هذا ليس الجُنيد هو المؤسِّس للطريقة -لما ذكرناه من أنها بوحي إلهي- وإنما نسبت إليه لتصدِّيه لحفظ قواعدها وأصولها، ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر، ولهذا السبب نُسبت العقائد للأشعري، والفقه للأئمة الأربعة، مع أن الجميع بوحي من الله تعالىٰ».

وهذا تحقيق نفيس بالغ النهاية في الحُسن والإيجاز، ما ترك لمنصفٍ قولًا.

وهذه أحاديث في تأييد مذهب الصوفية، مشفوعة بما يوضح معناها ويبين وجه الدلالة منها علىٰ ما تقتضيه القواعد الحديثية والأصولية.

عبدالله الصِّدِّيق الغُماري

الحديث الأول

الإحسان - المراقبة - المشاهدة

عن عمرَ رضي الله عنه قال: بينما نحن جُلُوسٌ عند رسولِ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ، شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرىٰ عليه أثرُ السَّفرِ ولا يعرفه مِنَّا أحدٌ، فجلس إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأسند رُكْبتَيه إلىٰ رُكْبتَيه ووضع كفَّيه علىٰ فخذيه -تأدبًا كهيئة المتعلِّم- وقال: يا مُحمَّد، أخبرني عن الإسلام؟ قال: «**الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلًا**». قال: صَدَقتَ. قال: فعجبنا له يسأله ويُصدِّقه!! قال: فأخْبِرني عن الإيمان؟ قال: «**الإيمانُ أن تؤمنَ بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ، وتُؤمنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**». قال: صدقتَ. قال: فأخْبِرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبدَ الله كأنَّك تراهُ فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن السَّاعة؟ قال: «**ما المسئولُ عنها بأعلمَ مِن السَّائلِ**»، قال: فأخبرني عن أَمَاراتِها؟ قال: «**أن تَلِدَ الأَمَةُ ربَّتها، وأن ترى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البُنْيانِ**». فانطلقَ الرجلُ، فلبثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قال: «**يا عمرُ أتدري مَن السائلُ؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريلُ أتاكم يُعلِّمُكُم دِينكُم**».

رواه مسلم في "صحيحه"، ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة، وله ألفاظ وطُرق، وهو حديث مستفيض.

قال الهروي في "منازل السائرين": «هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب

هذه الطائفة».

قال شارحه: لأنّ أصل هذه الطريقة الخاصة: كمال المعرفة، ودوام المراقبة للحق سبحانه في الحركات والسَّكَنات، بل في الأنفاسِ واللّحظات، حتىٰ يستولي سلطانُ الحقِّ علىٰ القلوب، فيضمَحلَّ ما تعلَّقت به أو سكنت إليه من الأحوال والخطوب.

فالإحسان يشتمل علىٰ مقامين: المراقبة ثُمَّ المشاهدة، والحديث بدأ بالمشاهدة إشارة إلىٰ علوّها وسُموّها وأنها المقصد الأهم، أما في السلوك والتَرقّي فيكون البدءُ بالمراقبة، لأنّ دوامها يُورث المشاهدة.

ولهذا لما أراد الجُنيد الدخول في الطريق وذهب إلىٰ خاله وأستاذه السَّرِيِّ السَّقَطي يُفضي إليه برغبته، قال له: يا بني إني أُلقنك ثلاث كلمات، إذا أردت أن تنام من الليل فقل عند نومك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهد عليَّ.

قال الجُنيد: فواظبت عليها نحو شهر، ثم قال لي أستاذي: يا بُني إذا كان الله معك وناظر إليك وشاهد عليك فهل يصح أن تعصيه؟!

قال الجُنيد: فنفعني الله بهذه الكلمات طوال حياتي، كلما هَمَمت بمعصيةٍ تذكرتها فما عصيت الله قط.

فانظر كيف لقَّنَ السري تلميذه الجُنيد مقام المراقبة لأنه يُوصل إلىٰ المشاهدة القلبية، أما المشاهدة البصرية فهي في الدنيا خاصة بنبينا صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لم تُعطَ لغيره، قال ابن عبَّاسٍ: «إن الله أعطىٰ الخُلة لإبراهيم، والكلام لموسىٰ، والرؤية لمحمَّدٍ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم».

وفي "صحيح مسلم" في حديث الدجّال، وأنه يقول للناس: «أنا ربكم»،

قال النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**».

وسُئل الإمام مالك: لِمَ لَمْ يرَ المؤمنون ربهم في الدنيا وإنما يرونه في الآخرة؟

فأجاب بأنهم في الدنيا فانون والفاني لا يرىٰ الباقي، وفي الآخرة أُعطوا أبصارًا باقية، فرأوا الباقي بالباقي.

ولهذه المناسبة أذكر حادثة وقعت في بغداد: فقد رُفع إلىٰ الخليفة أن أحد مشايخ الطريق ادعىٰ أنه رأىٰ الله ببصره وقامت عليه البينة، فأمر بقتله.

فعلم القطب الكبير الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه -وهو حنبلي المذهب صوفي المشرب- فذهب إلىٰ الخليفة، وقال له: إن هذا الشيخ ضاقت عنه العبارة فصدر عنه ما لا يقصد، فقال الخليفة: وماذا يقصد؟ فقال الشيخ عبدالقادر: إنه شاهد الله ببصيرته، فانعكس نور بصيرته علىٰ بصره فشاهد ذلك النور، فصدر عنه ما سمعتموه. فقال ذلك الشيخ: والله ما أردت إلا هذا. وصدر الحكم ببراءته، وسلامة عقيدته.

وهكذا أغلب الألفاظ المشكلة المنقولة عن بعض الصوفية، لها محامل صحيحة ووجوه من التأويل حسنة، ولكن المعترضين عليهم مُغرِضون.

الحديث الثاني

محاربة الله لمن عادى أولياءه- وطريق الولاية

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «**إنَّ الله تعالى قال: مَن عادَى لي وليًّا فقد آذنتُهُ بالحربِ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحْبَبْتُه، كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبصِرُ به، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، ولئن سألني لأُعْطِينّه، ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّه**».

رواه البخاري في "صحيحه"، وله طرق عن عائشة، وأبي أُمامة، وعلي، وأنس، ومعاذ، وحذيفة.

في هذا الحديث بيان مبدأ طريق الصوفية ونهايته، ذلك أنهم يبدأون بالمجاهدة ولا يزالون يجاهدون أنفسهم، ويجتهدون في تطهير قلوبهم مِنّ كل ما يُباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يُقرّب إليه من الأقوال والأعمال والأحوال، ولزوم الإقبال عليه ودوام المُثول بين يديه في كل وقت وعلى كل حال بحسب الإمكان، حتى يَصِلوا إلى مقام الفناء، ومن وصل منهم إلى هذا المقام كان محبوبًا ملحوظًا ومربوبًا محفوظًا، فني عن نفسه وبقي بربه، فكان الله ولي أمره وحافظ سِرِّه، فهو لذلك سمعه وبصره ويده ورجله، أي: متولي شؤونه كلها.

الحديث الثالث

علم الظاهر والباطن

عن أُبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أنّ **موسى قال للخَضِرِ- عليهما السَّلام-: هل أَتَّبِعُكَ على أن تُعلِّمنِ مما عُلمتَ رُشْدًا؟، قال: إنَّكَ لن تستطيعَ معي صبرًا، يا موسى إنِّي على علمٍ مِن علم الله علَّمَنِيه لا ينبغي لكَ أن تعلَمُه، وأنت على علمٍ عَلَّمكَ اللهُ لا ينبغي لي أن أعْلَمه**». أي جميعه، وكذا قوله: لا ينبغي لك أن تعلمه: أي جميعه.

قال الحافظ ابن حجرٍ في "شرح البخاري": «وتقدير ذلك معتبر؛ لأن الخضر كان يعرف مِنَ الحُكْم الظاهر ما لا غِنىٰ للمكلَّف عنه، وموسىٰ كان يعرف مِنَ الحُكْم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي».اهـ

وهذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة من طرق، وفيه إثبات علم الباطن الذي يقول به الصوفية، ولهذا قال الجمهور: «إنّ الخَضِر نبيٌّ، وكان علمه معرفة بواطن أُوحيت إليه، وعلم موسىٰ الحكم بالظاهر». نقله أبو حيان في "البحر المحيط".

فالجمهور -كما ترىٰ- موافقون للصوفية علىٰ إثبات الباطن والظاهر، وأَنّ لكل منهما أهلًا يختصّون به، فماذا يقول المُعترضون؟!

إلا أنّ في الحديث إشكالًا أجاب عنه الحافظ ابن حجرٍ بما سبق في كلامه، وسلك في الجواب عنه الشيخ سراج الدين البلقيني في "شرح البخاري" مسلكًا آخر حيث قال: «هذا الحديث قد يشكل، فإن العلم المذكور في الجهتين

كيف لا ينبغي علمه؟ وجواب هذا الإشكال: أن علم الحقائق والكشوف ينافي علم الظاهر، فلا ينبغي للعالِمِ الحاكم بالظاهر الذي هو مُكلَّف به أن يعلم الحقائق للتنافي، ولا ينبغي للعالِمِ بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذي ليس مكلَّفًا به، الذي ينافي ما عنده من الحقيقة، ويمكن حمل العلم على تنفيذه، والمعنى: لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به؛ لأن العمل به منافٍ لمقتضى الشرع، ولا ينبغي لي أن أعلمه فأعمل بمقتضاه؛ لأنه منافٍ لمقتضى الحقيقة، فعلى هذا لا يجوز للوليّ التابع للنبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إذا اطّلع على حقيقة أن يُنَفّذ ذلك بمقتضى الحقيقة، وإنما عليه أن يُنَفّذ الحكم الظاهر».اهـ

ويؤيد حمل العِلم على التنفيذ ما جاء في روايةٍ لمسلم: «**أنّ الخَضِر قال لموسى عليه السَّلام: إنك لن تستطيع معيَ صبرًا، وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبرا؛ شيءٌ أُمرت به أن أفعله، إذا رأيته لم تصبر**». فهذا صريح في حَمْلِ العِلم على تنفيذه.

وفي الحديث مسألة أخرى أشار إليها العلامة الأُبِّي في "شرح مسلم" حيث قال -في شرح قول موسى: «**هل أتبعك...**»إلخ-: «عِلم الخَضِر هو العِلم بالمغيَّبات الموهوبة الدينية غير المكتسبة، فكيف يسأل تعليم مالا يُكتسب؟! وكان الشيخ -يعني شيخه الإمام ابن عرفة، الذي قيل فيه إنه المُجدِّد على رأس المائة الثامنة- يُجيب بأن ذلك قد يكون باعتبار تعلم أسبابه، فيمكن اكتسابها بالتزام نوع من طاعة الله تعالى».اهـ

وهو يشير إلى ما اتفق عليه الصوفية أنَّ المجاهدة والتزام الذكر مع حضور القلب يُورث علومًا وهبية، ويؤيده ما رواه الحسين المروزي في"زوائد الزهد"

لشيخه عبدالله بن المبارك فقال: حدثنا أبو معاوية: أنبأنا حجاج، عن مكحول، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**مَنْ أخلص لله أربعين يومًا ظَهَرَتْ ينابيعُ الحكمةِ مِن قلبِهِ على لسانِهِ**». إسناده صحيح.

ورواه ابن عدي في "الكامل" من حديث ابن عبَّاسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ، ورواه أبو نعيم في "الحلية" من حديث أبي أيوب بإسناد ضعيف أيضًا.

الحديث الرابع

للقرآن ظاهرٌ وباطنٌ

عن الحسن البصري قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**لكلِّ آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ، ولكلِّ حرفٍ حَدٌّ، ولكلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ**».

رواه الفريابي في "تفسيره" بإسناد صحيح، ورواه أبو عبيد في "فضائل القرآن"، عن الحسن أيضًا، بإسناد حسن.

وروىٰ أبو يعلىٰ، والبزّار، والطبراني في "الأوسط"، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن**». رجال الحديث ثقات، كما قال الحافظ الهيثمي.

قال ابن النقيب في "تفسيره": «ظهر الآية: ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر. وبطنها: ما تضمّنته مِن الأسرار التي أطْلَعَ الله عليها أرباب الحقائق».اهـ

والحدُّ: هو الغامض من المعاني، والمطلع: ما يتوصل به إلىٰ معرفته، ولا يتوصل إلىٰ غامض المعاني إلا أرباب الحقائق، بما أفاض الله عليهم من الأسرار والمعارف.

عليٌّ عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن

روىٰ أبو نعيم في "الحلية"، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :«إنَّ القرآن أُنزل علىٰ سبعة أحرفٍ، ما منها حرفٌ إلا له ظهرٌ وبطنٌ، وإنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ عنده منه علم الظاهر والباطن».

ورُوِي أيضًا عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كنا نتحدَّث أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عهد إلىٰ عليٍّ سبعين عهدًا لم يعهده إلىٰ غيره».

فهذا تصريح بأن الصحابة كانوا يعترفون لعليٍّ بتفوقه في علوم الحقائق والأسرار، وهذا مما لا نزاع فيه، وقد قال فيه النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أنا مدينةُ العلمِ وعليٌّ بابها**». وهو حديث صحيح، كما بينه شقيقي الحافظ أبو الفيض في كتاب "فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ".

وقال ابن عبَّاسٍ: «سلّمَ الصحابة لعليٍّ تسعة أعشار العلم، وشاركهم في العُشر العاشر».

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «أعوذ بالله من قضية ليس لها أبو حسن» يعني عليًّا عليه السَّلام، وقال أيضًا: «لولا عليٌّ لهلك عمر». ونَصَّ المناوي علىٰ أنّ عمر لم يكن يبعث عليًّا في الفتوحات مع شجاعته الفائقة لاحتياجه إلىٰ علمه.

وحصلت حادثة في عهد أبي بكر رضي الله عنه أشكلت عليه وعلىٰ الصحابة، فأرشدهم ابن عبَّاسٍ إلىٰ إحالتها علىٰ عليٍّ عليه السلام، فلمّا أجاب عنها وحَلّ مُغْلَقَها، قال له أبو بكر والصحابة: «يا مُفرّج الكروب».

وهذه الحادثة مروية بإسنادها في كتاب "المجتنى" لابن دريد، ولهذا كان عليٌّ -عليه السلام- أستاذ الصوفية ورئيسهم، كما قال الجُنيد وابن العربي الحاتمي وغيرهما، وسلسلة الطريق لا تتصل إلا به ولا تنتهي إلا إليه، بالتلقين والاقتداء والصحبة، كما فصّله أخي في "البُرهان الجلي".

الحديث الخامس
علوم الحقائق لا يُنكرها إلا المغرورون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إنّ مِنَ العلم كهيئةِ المكنونِ لا يعلمُهُ إلَّا أهل العِلْمِ بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرَّة بالله**». رواه الطبسي في "الترغيب"، ورواه الديلمي في "مسند الفردوس" وهو حديث ضعيف، لكنه يتأيد بشيئين:

أحدهما: ما ثبت في "صحيح البخاري"، عن أبي هريرة أيضًا قال: «حفظت من رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعاءين، فأَما أحدَهُما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقُطع هذا البُلعوم».

قال البخاري: «البُلعوم: مجرى الطعام وهو بضم الباء».

وفي رواية: «لقُطِع هذا» يعني رأسه، فذلك الوعاء الذي لم يبثه محمول على الأحاديث التي فيها بيان أُمَراء السُّوء من بني أُمية، وعلى الأحاديث التي تتعلَّق بأشراط الساعة والملاحم في آخر الزَّمان، فينكر ذلك من لم يألفه طبعه، كما حصل من مبتدعة العصر: إنكار المهدي ونزول عيسى وخُروج الدجال والميزان وغير ذلك، وعلى ما تلقاه من الأسرار والحقائق التي يضيق نطاق كثير

من الناس عن فهمها فيبادرون إلىٰ إنكارها.

ثانيهما: ما هو واقع مشاهد، فلا يُنكِر علوم الصوفية وما وهبهم الله من الحقائق إلا الأغرار المفتُونون، أصحاب مطامعٍ وأغراض، ومما يصحح به الحديث الضعيف عند أهل الحديث أن يكون الواقع علىٰ وفقه، لأنه ليس بعد الواقع المشاهد دليل.

الحديث السادس

علم الباطن هو العلم النافع

عن الحسن، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**العلمُ عِلمان، فعلمٌ ثابتٌ بالقلبِ فذاك العلمُ النافعُ، وعلم في اللسان فذاك حُجَّةُ الله على عباده**».

رواه الخطيب في «التاريخ»، وحَسّنهُ الحافظان زكي الدين المنذري، وزين الدين العراقي، وأعلَّه ابن الجوزي فلم يُصب، ورواه أبو نعيم، والديلمي في "مسند الفردوس" من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وهذا الحديث أورده قطب الدين القسطلّاني -وهو قبل القسطلّاني صاحب "المواهب اللدنية"- في كتابه في التصوف شاهدًا للحديث السابق، يشير بذلك إلىٰ أن العلم الثابت بالقلب هو علم الباطن، بدليل حديث: «**مَن أَخْلَصَ لله أربعين يومًا ظَهَرَتْ ينابيعُ الحكمةِ مِن قلبه على لسانه**». وقد تقدَّم تخريجه، وأنّ علم اللسان هو علم الظاهر، وهو حُجَّة الله علىٰ عبده إذا لم يعمل به، وإنما كان علم الباطن الذي هو علم القلب نافعًا؛ لأنه لا يحصل للشخص

إلا بعد المُجاهدة والعمل بالعلم الظاهر، إذ هو نتيجته وثمرته، بخلاف علم الظاهر فلا ينتفع به إلا من يعمل به، وليس كل عالم عاملًا.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم في "تفسيره" من طريق سفيان الثوري، عن أبي حيان التيمي، عن رجل قال: «كان يقال العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله يخشىٰ الله ليس بعالمٍ بأمرِ الله، وعالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله يخشىٰ اللهَ، فذاك العالم الكامل - لجَمْعِهِ بين علمي الظاهر والباطن- وعالمٌ بأمرِ الله ليس بعالمٍ بالله، لا يخشىٰ الله، فذلك العالم الفاجر». وإنما كان هذا فاجرًا، لأنه لم يعمل بعلم الظاهر، والأول من علماء الباطن وهو من الأبرار لأنه خشي الله واتقاه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

الحديث السابع

الإلهام- التحديث

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لقد كان فيما قَبْلكُم مِن الأمم مُحدَّثون، فإن يكن في أمَّتي أحدٌ فإنه عمرُ**».

وفي رواية: «**قد كان فيمن قَبْلكُم مِن بني إسرائيل يُكَلَّمون مِن غير أن يكونوا أنبياءَ، فإن يكن في أمَّتي أحدٌ فعمرُ**». رواه البخاري.

ورواه مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- ولفظه: «**قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمَّتي منهم أحدٌ، فعمرُ منهم**».

قال ابن وهب: تفسير محدَّثون -بفتح الدال المشددة-: مُلهمون.

قال أكثر العلماء: «المُلهم: هو الرجل الصادق الظن، يُلْقَىٰ في رُوعه شيء

من قِبَل الملأ الأعلىٰ فيكون كالذي حدَّثه غيره به».

وقيل: «مُكَلَّم تُكلِّمه الملائكة من غير نبوّةٍ». كما تقدّم في إحدىٰ روايتي أبي هريرة.

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري: قيل: يا رسول الله، وكيف يُحَدَّث؟ قال: «**تتكلَّم الملائكة على لسانه**». رواه الجوهري في "فوائده".

قال الحافظ ابن حجرٍ: «ويحتمل ردّه إلىٰ المعنىٰ الأول، أي تُكلِّمه في نفسه وإن لم ير مُكلِّما في الحقيقة، فيرجع إلىٰ الإلهام».

وقوله: «**فإن يكن في أمَّتي أحدٌ...**» إلخ، قال الحافظ ابن حجرٍ: «قيل لم يُورد هذا القول مَوْرد الترديد، فإن أمته أفضل الأمم، وإذا ثبت أن ذلك وُجِد في غيرهم فإمكان وجوده فيهم أولىٰ، وإنما أورده مورد التأكيد كما يقول الرجل: إن يكن لي صديق فإنه فلان، يريد اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي الأصدقاء، وقيل: الحكمة فيه أن وجودهم في بني إسرائيل كان قد تحقَّق وقوعه، وسبب ذلك احتياجهم، حيث لا يكون حينئذٍ فيهم نبي، واحتمل عنده صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ألا تحتاج هذه الأمة إلىٰ ذلك لاستغنائها بالقرآن عن حدوث نبيٍّ.

وقد حصل ذلك -أي حصل الاستغناء بالقرآن- حتىٰ إن المُحدَّث منهم -بفتح الدال المشددة- إذا تحقق وجوده لا يحكم بما وقع له، بل لا بد من عرضه علىٰ القرآن، فإن وافقه أو وافق السُّنَّة عُمل به وإلا تركه، وهذا -وإن جاز أن يقع لكنه نادر- ممن يكون أمره منهم مبنيًّا علىٰ اتباع الكتاب والسُّنَّة.

وتمَحَّضَت الحِكمة في وجودهم وكثرتهم بعد العصر الأول، في زيادة

شرف هذه الأمة بوجود أمثالهم فيه، وقد تكون الحكمة في تكثيرهم مضاهاة بني إسرائيل في كثرة الأنبياء فيهم، فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها لكون نبيها خاتم الأنبياء، عُوِّضوا بكثرة الملهمين». اهـ كلام الحافظ.

هذا وقد اهتم علماء الأصول بالإلهام، وعقدوا له بحثًا خاصًا تكلَّموا فيه على معناه والاحتجاج به. قال التاج السُّبكي في "جمع الجوامع": «الإلهام: إيقاع شيء في القلب يُثلَجُ له الصدر». أي ينشرح له.

وقال الشوكاني في "إرشاد الفحول": «دلالة الإلهام ذَكرها بعض الصوفية، وحكى الماوردي، والروياني في "كتاب القضاء" في حُجِّية الإلهام خلافًا، قال الزركشي في "البحر المحيط": «واختار جماعة من المتأخِّرين اعتماد الإلهام، منهم الإمام الرازي في "تفسيره" في أدلة القبلة، وابن الصلاح في "فتاواه"، فقال: إلهام خاطر الحقِّ مِن الحقِّ، قال: ومِن علامته أن ينشرح له الصدر، ولا يعارضه معارضٌ آخر».

وقال أبو علي التميمي في كتاب "التذكرة في أصول الدين": «ذهب بعض الصوفية إلى أن المعارف تقع اضطرارًا للعباد على سبيل الإلهام، بحكم وعد الله سبحانه وتعالى بشرط التقوى، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[الأنفال: ٢٩]، أي ما تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[الطلاق: ٢] أي مِن كلِّ ما يلتبس على غيره وجه الحكم فيه، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢]

فهذه العلوم الدينية تحصل للعباد إذا زكت أنفسهم وسلمت قلوبهم لله

تعالىٰ بترك المَنْهيات وامتثال المأمورات، وخبره صدقٌ ووعدهُ حق.

واحتجّ شهاب الدين السهروردي علىٰ الإلهام بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وبقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا الوحي هو مجرد الإلهام، ثم إن من الوحي علومًا تحدث في النفوس الزكية المطمئنة، قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: **«إن من أمَّتي المُحدّثين والمُكلّمين وإن عمر لمِنهُم»**، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨] فأخبر أن النفوس مُلهمة.

واختار السهروردي أنّ الإلهام حُجَّةٌ لمن وقع له دون غيره، ومال إليه سعد الدين التفتازاني في بعض مصنفاته، والراجح عند الجمهور أنه ليس بحُجَّةٍ، لانتفاء العصمة، وهو قول جمهور الصوفية أيضًا.

الحديث الثامن

الحقيقة

عن أنس: أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لقي رجلًا يُقال له: حارثة، في بعض سكك المدينة فقال: **«كيف أصبحتَ يا حارثةُ؟»** قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا، فقال: **«إنّ لكلِّ قولٍ حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانك؟»**، فقال: عزفت نفسي عن الدُّنيا، فأسْهَرْتُ ليلي وأظْمَأْتُ نهاري، وكأنّي أنظر إلىٰ عرش ربي، وكأنّي أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنّي أسمع عواء أهل النار. فقال: **«مؤمنٌ نوَّرَ الله قلبَهُ»**. وفي رواية: **«عرفتَ فالزمْ، مؤمنٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ»**.

رواه البزار في "مسنده"، والبيهقي في "الشعب"، وله طرق عند ابن المبارك

في "الزهد"، وعبدالرزاق في "التفسير"، والطبراني في "المعجم"، وابن منده.

في هذا الحديث إثبات المجاهدة والزهد، وجَوَلَان الروح في العرش والجنَّة والنَّار بطريق التفكير والمشاهدة القلبية، وفيه أيضًا إثبات الحقيقة وهو المقصود هنا.

قال شارح "منازل السائرين": «حقيقة الشيء عند أهل هذا الشأن: علاماته الدالة عليه»، واستدل بهذا الحديث.

قال الحافظ السيوطي: «ويظهر لي أنّ أهل هذا الشأن إنما سَمُّوا عِلمَهم علَم الحقيقة، أخذًا من لفظ الحقيقة في هذا الحديث، وقد ظهر لي أنّ نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة علم المعاني والبيان إلى علم النحو، فهو سِرّه ومبنيٌّ عليه، فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين، ولا يحصل على شيء، كما أنّ من أراد الخوض في أسرار عِلم المعاني والبيان من غير أن يُحكم النحو فهو يخبط خبط عشواء، وكيف يُدْرِك أحوال الإسناد، والمُسنَد إليه، والمُسنَد، ومتَعَلَّقَات الفعل، من لم يعرف المبتدأ من الخبر، والفاعل من المفعول؟! هذا بيّن لكل أحد.

والحقيقة سرُّ الشريعة ولبُّها الخالص، كما أن المعاني والبيان سرُّ النحو ولطائفه، والتصوف فقه بلا شك، فإن أكثره تكاليف واجبة ومندوبة، ومنها محرمة ومكروهة، وقد نصَّ على أن أبواب التصوف من الفقه جماعة من أهل الأصول، ووافقهم ابن السُّبكي في "جمع الجوامع".

واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء، بالعبارة التي أَلِفُوهَا في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان، وكانوا أول قائل بها،

وإنما يُنَفِّرُهم منها إيرادها بعبارة مُستَغربة لم يألفوها، ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما يُعلم، وأقبح ما يُقال.

وأنا أورد لك مثالًا تعرف به صحة ذلك، قال في "منازل السائرين": «حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تميز الثقة من الغرة، ونسيان الجناية، والتوبة عن التوبة أبدًا». فإن سمع الفقيه هذا اللفظ استغربه جدًّا، وقال: كيف يُتاب من التوبة؟! وإنما يُتاب من المعاصي، وتقرير معناه: أنَّ العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله، ولم يسكن إليها، توبةً كانت أو غيرها، فيتوب من سكونه إلى توبته؛ لأن التوبة -وإن كانت من كَسْبِ العبد- فهي من خَلقِ الله وتوفيقه، ولو لم يَتُب عليه، لَمَا تاب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾ [التوبة: ١١٨]، فرؤية العبدِ التوبةَ مِن نفسه ذنبٌ يُستغفَرُ منه، بل عليه أن يشهد محض مِنّة الله عليه بها وتوفيقه لها، ويلغي نفسه أصلا عن درجة الاعتبار، وهذا مقام الفناء في التوبة، وهي أول منازل السائرين، ويقاس به مقام الفناء في التوحيد، فلا يشهد في توحيده صُنْعًا، بل محض مِنّة الله عليه به وتوفيقه له، وهذا المعنى إذا عُرِضَ على الفقيه بهذِهِ العبارة المألوفة، كان أول قائل به، وناصر له».اهـ

وقال سُلطان العلماء الإمام عزّ الدين بن عبدالسلام في "قواعد الأحكام": «الطريق في إصلاح القلوب التي تَصلح الأجساد بِصلاحها وتَفسد بِفسادها: تطهيرها من كل ما يُبَاعد عن الله، وتزيينها بكل ما يُقَرِّب إليه ويُزْلِف لديه، من الأحوال والأقوال والأعمال وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كل وقتٍ من الأوقات وحالٍ من

الأحوال، على حسب الإمكان من غير أداء إلى السآمة والمَلَل، ومعرفة ذلك هي الملقَّبة بِعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحةٌ بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفةٌ لجل الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفةٌ لدق الشريعة، ولا ينكر شيئًا منهما إلا كافر أو فاجر، وقد يتشبّه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شرٌّ من قُطّاع الطريق؛ لأنهم يَقْطَعُون طريق الذاهبين إلى الله تعالى». اهـ

فتلخَّص من جميع ما تقدَّم: أن الحقيقة صِنو الشريعة، بل هي لُبُّها وسِرُّها الخالص، وأنَّ ما يُثار حولها من اعتراضات قد تصل إلى الكفر أحيانًا، مرجعه إلى أمرين:

أحدهما: صَوْغُ معانيها في عباراتٍ غامضةٍ غير مألوفةٍ، كما أشار إليها الحافظ السيوطي.

ثانيهما: تَشَبُّه الدُّخلاء بأهل الحقائق، كما أشار إليه عزّ الدين بن عبدالسلام، وجَعَل هؤلاء الدُّخلاء شرًّا من قُطّاع الطريق.

وهذا ما حمل رجال العشيرة المحمّدية -وَفَّقَهم اللهُ تعالى- على القيام بحملةٍ واسعةٍ لتطهير التصوّف مما أُلصق به من بدعٍ وخرافات، وإرجاعه إلى ما كان عليه أيام السلف الصالح من السُموّ الروحي، والتهذيب الخُلقي، وَفَّقَ اللهُ الخُطى وحَقَّقَ الآمال.

الحديث التاسع

المكاشفة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبيّ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**اتقوا فِراسَةَ المؤمنِ فإنه يَنْظُرُ بنورِ الله**». رواه الترمذيُّ، وابن جريرٍ، وابن أبي حاتمٍ.

ورواه الطبرانيُّ في "الكبير"، وأبو نعيم في "الطب النبويّ"، والترمذيُّ الحكيم في "نوادر الأصول"، من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه.

ورواه ابن جريرٍ، وأبو نعيمٍ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه ابن جريرٍ من حديث ثوبان رضي الله عنه، ولفظه: «**احذروا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظرُ بنورِ الله، وينطقُ بتوفيقِ الله**».

وهو حديثٌ حسنٌ كما قال الحافظان نور الدين الهيثمي، وجلال الدين السيوطي، وأورده ابن الجوزيِّ في "الموضوعات" فلم يُصب.

وروىٰ ابن جريرٍ، والبزَّار: عن أنسٍ قال: قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**إنَّ لله عبادًا يعرفون النَّاسَ بالتَّوَسُّم**». إسناده علىٰ شرط الحسن.

هذا الحديث أصل في الكشف الذي يقع لكثير من الأولياء، تجد الواحد منهم يكاشف الشخص بما حصل منه في غيبته كأنه كان حاضرًا معه، ونَصَّ الحافظ ابن حجرٍ في "فتح الباري" في شرح حديث قتل خبيب رضي الله عنه علىٰ: « أنّ إجابة الدعوة في الحال، وتكثير الطعام والماء، والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك، قد كُثر جدًّا حتىٰ صار وقوع ذلك

ممن يُنسب إلىٰ الصلاح كالعادة».اهـ

وقال أيضًا في شرح حديث «**في خمسٍ لا يعلمهنَّ إلا الله**»: «وأما ما ثبت بنَصِّ القرآن أن عيسىٰ عليه السَّلام قال أنه يُخبرهم بما يأكلون وما يدَّخِرون، وأن يوسف قال أنه ينَبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتي، إلىٰ غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات، فكل ذلك يمكن أن يُستفاد من الاستثناء في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّامَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[الجن: ٢٧] فإنه يقتضي اطلاع الرسول علىٰ بعض الغيب، والوليّ التابع للرسول عن الرسول يأخذ وبهِ يُكرم، والفرق بينهما: أنّ الرسول يطّلع علىٰ ذلك بأنواع الوحي كلها، والوليّ لا يطّلع علىٰ ذلك إلا بمنامٍ أو إلهامٍ والله أعلم».اهـ

الحديث العاشر

الخلوة والانقطاع إلى الله

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من الوحي: الرؤيا الصالحة، فكان لا يرىٰ رؤيا إَلا جاءت مثل فَلَقِ الصُبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنّثُ فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، ويتزودُ لذلك». رواه البخاري.

في هذا الحديث دليلٌ للصوفية في الخَلْوةِ والانقطاع عن الخَلْقِ في الزوايا والمساجد.

قال العارف أبو محمد بن أبي جمرة في "بهجة النفوس": «في الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ الخَلْوة عَونٌ للإنسان علىٰ تعبده وصلاح دينه؛ لأنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه

وآله وسلَّم لمّا اعتزل عن الناس وخلا بنفسه أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم الله له من مقامات الولاية». اهـ

ولأن الخَلوة تعين على التفكُّر في عظمة الله وسَعة قُدرته، وعموم نعمته وباهر حكمته، وقد كان تعبُّد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في خلوته بغار حراء تفكُّرًا واعتبارًا، وحضَّ القرآن الكريم على التفكر في غير آيةٍ، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

وأيضًا فإن الخلوة أَجْمَعُ لقلبِ المُريد، وأعونُ له على التفرغ لذكر الله، وأبعدُ عن الرياء، وأيضًا فإن الخُلوة تُبْعِدُ المُريد عن مواطنِ اللَغْوّ واللَغط، وتُهيِّئه لقبول الواردات الإلهية والتَّجَلِّيات الرَبَّانية، ولهذا رَغَّب الشارع فيها وجَعَلَها من العادات المطلوبة، وأفردها فقهاء المذاهب بباب خاص لها، هو "باب الاعتكاف" ذكروا فيه أحكامه وشروطه وآدابه، وثَبَتَ في "الصحيحين": أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فيلزم المسجد النبوي ويعتزل نساءه، ويُقْبِل على العبادة والذكر وتلاوة القرآن، ولا يخرج إلّا لقضاء حاجة الإنسان.

وفي "سُنن أبي داود"، بإسناد لا بأس به، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «السُّنَّةُ على المعتكف: أن لا يعود مريضًا، ولا يشهد جنازة، ولا يمس امرأة ولا يُباشرها، ولا يخرج لحاجةٍ إلا لما لا بُد له منه».

فهذه هي الخلوة التي اتخذها الصوفية، وسموها: تجريدًا؛ لأن المُريد يتجرَّد من العلائق والعوائق، وينقطع إلى الذكر والعبادة مدة قد تطول وقد تقصر بحسب استعداده وما قُسِمَ له، لكنهم صرّحوا مع ذلك بأن المُريد إذا كان له عمل يتكسب به كالتجارة أو صناعة مثلًا، فلا ينبغي له تركه إلى الخلوة والتجريد، بل يبقى في عمله الذي أقامه الله فيه، ويستطيع أن يذكر الله في حالته تلك وفي أوقات فراغه، ولهذا قال ابن عطاء الله في "الحِكَم": «إرادتك التجريد مع إقامة الله إيّاك في الأسبابِ مِن الشهوةِ الخفيّة، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إيّاك في التجريدِ انحطاطٌ عن الهمّة العَلِيَّة».

ودليلهم على ذلك: حديث كعب بن عُجْرةَ رضي الله عنه قال: مرَّ علَى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من جَلَدِه ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إن كان خَرَجَ يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيلِ الله، وإن كان خرجَ يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى على نفسِهِ يعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومُفاخرةً فهو في سبيل الشيطان**». رواه الطبراني بإسناد صحيح.

وقد كان في الصحابة أهل التجريد، وأصحاب الأسباب، أما أهل التجريد: فهم أهل الصُّفَّة، كانوا نحو سبعين صحابيًّا، مقيمين بالمسجد النبويّ لا أهل لهم ولا مال، وكان النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يُنفق عليهم.

واسمع إلى أبي هريرة يتحدَّث عن نفسه وعنهم -وهو أحدهم- فيقول:

«والذي لا إله إلا هو إنْ كنت لأعتمد بكَبِدي على الأرض من الجوع، وإنْ كنتُ لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قَعَدْتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ بي أبو بكرٍ، فسألته عن آيةٍ في كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فلم يفعل، ثم مرَّ عمر، فسألته عن آيةٍ من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فلم يفعل.

ثم مر أبو القاسم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فتبسَّم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، فقال: «**يا أبا هريرة**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحَقْ**» وَمَضى، فاتَّبَعْتُه، فدخل فاستأذن فأُذِنَ له، فدخل فوجد لبنًا في قَدَح، فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «**يا أبا هريرة**». قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحَقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي**».

قال: وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام، لا يلوون على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أَتَتْهُ صدقةٌ بعثَ بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

فأتيتُهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا فأُذِنَ لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «**يا أبا هريرة**». قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**خذ فأعطهم**». فأخذْتُ القدَح فجعَلْتُ أعطيه الرجل فيشرب حتى يُروى، ثم يَرُدُّ عليَّ القَدَح، حتى انتهيتُ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وقد رُوِيَ القوم كلهم، فأخذ القَدَحَ فوضعه على يده، فتبسَّم فقال: «**يا أبا هريرة**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**وبقَيِتُ أنا وأنت**». قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**اقعدْ فاشربْ**»، فشربت، فقال: «**اشربْ**»، فشربت، فما زال يقول: «**اشربْ**»، حتى قلت: لا

والذي بعثك بالحق، لا أجد له مَسْلكًا، قال: «فأرني»، فأعطيته القَدَح، فحمد الله تعالىٰ وسمَّىٰ، وشرب الفَضْلةَ. رواه البخاري وغيره.

وجاء في حديث لأبي هريرة: أن أهل الصفة كانوا سبعين صحابيًّا. قال الحافظ ابن حجرٍ: «وليس المراد حصرهم في هذا العدد، بل المراد عِدّتُهم في أول الأمر، وإلا فمجموعهم أضعاف ذلك». وقد سرد أبو نعيم أسماءهم في أول "الحِليَة" فزادوا علىٰ المائة.

وأما أصحاب الأسباب: فمعظم الصحابة، فالأنصار كانوا أهل نخلٍ وزرعٍ، والمهاجرون أهل تجارةٍ، وفيهم الخلفاء الأربعة، إلا عليًّا عليه السلام، فإنه كان علىٰ حال النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من الزهد وترك الأسباب إلا في القليل النادر، ولذا كان مِن أوصافه اللازمة له -مع لزوم الشجاعة والعلم- زهده.

الفتـــوة

قال الأستاذ أبو القاسم الجُنيد: «الفتوَّة كفُّ الأذىٰ، وبذل الندىٰ».

وقال أبو القاسم القُشيري: «أصل الفتوَّة أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره».

ونقل عن شيخه الأستاذ أبي علي الدقّاق أنه قال: «هذا الخُلُق لا يكون كماله إلا لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فإن كلَّ أحدٍ في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول:« أُمَّتي أُمَّتي».

ثم استدل القُشيري لهذا الخُلق بما رواه بإسناده: عن أبي هريرة، عن زيد بن

ثابت، عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**لا يزال الله في حاجةِ العَبْدِ ما دام العَبْدُ في حاجةِ أخيه المسلم**». وهذا الحديث رواه الطبراني أيضًا بإسناد رجاله ثقات كما قال الحافظ المنذري.

وفي "صحيح مسلم" والسُّنن الأربعة عن أبي هريرة، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**مَن نفَّس عن مسلمٍ كُربةً من كُرب الدُّنيا، نفَّس اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يوم القيامةِ، ومن يَسَّر على مُعسْرٍ في الدُّنيا، يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرة، ومَن ستر على مُسلمٍ في الدُّنيا، ستر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرة، واللهُ في عونِ العبد ما كان العبد في عونِ أخيه**».

وفي "الصحيحين": عن ابن عمر، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، مَن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجَتِهِ، ومن فرَّج عن مسلمٍ كُرْبةً فَرَّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرُب يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامةِ**».

وهذا الخُلُق -أعني الفتوةَ- مرجعُه إلىٰ سخاوة النفس، وهو شرط في المريد، كما قال جدنا العارف الكبير أبو العباس أحمد بن عَجِيبةَ الحَسني في: "شرح المباحث الأصلية"، فقد قالوا: «مِنْ أَقبحِ القبيحِ صوفيٌّ شحيح». ثم هو يشتمل علىٰ عدة معان:

الأول: الإيثار، وقد مدحه الله تعالىٰ في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]

وسبب نزول هذه الآية: ما ثبت في "الصحيحين" عن أبي هريرة: أنَّ رجلًا

أتىٰ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: يا رسول الله أصابني الجَهْد، فبعث إلىٰ نسائه فقُلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**من يَضُمُّ أو يُضِيف هذا؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلىٰ امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقالت: ما عندنا إلا قُوت صِبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأَصْبِحي سِراجك، ونوِّمي صِبيانك إذا أرادوا عَشاءً. فهيَّأت طعامها وأَصْبحتْ سِراجها ونَوَّمت صِبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُرِيَانِهِ كأنهما يأكلان فباتا طاوِيَيْنِ. فلما أَصْبَحَ غَدا إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: «**ضَحِكَ الله الليلة، أو عجب مَن فعالِكُما**»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]». الرجل الذي اشتكىٰ الجهد هو: أبو هريرة، والأنصاري الذي ضَيَّفَه هو: أبو طلحة.

ورویٰ ابن مَرْدُويَه في "تفسيره"، عن ابن عمر: «أُهديَ لرجل رأسُ شاة، فقال إن أخي وعياله أحوج مِنا إلىٰ هذا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلىٰ آخر، حتىٰ رجعت إلىٰ الأول بعد سبعة، فنزلت الآية».

قال الحافظ ابن حجرٍ: «ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله».اهـ

ومن أروع مواقف الإيثار عند الصوفية، ما حكاه الجلال المحلي في "شرح جمع الجوامع" فقال: «ولا التِفَات لِمَنْ رَمَاهم في جملة الصوفية بالزندقة عند خليفة السلطان، حتىٰ أمر بضرب أعناقهم، فأمسكوا، إلا الجُنيد فإنه تستَّر بالفقه، وكان يفتي علىٰ مذهب أبي ثور شيخه، وبُسِطَ لهم النِّطْع، فتقدم من

آخرهم أبو الحسين النوري للسيَّاف، فقال له: لِمَ تقدمت؟! فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة، فبُهِت وأنهىٰ الخبر للخليفة، فرَدّهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه عنها، ثم قال -أي النوري- : وبعد، فإن لله عبادًا إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا بالله...إلخ كلامه، فبكىٰ القاضي وأرسل للخليفة يقول: إن كان هؤلاء زنادِقة فما علىٰ وجه الأرض مسلم، فَخَلَّىٰ سبيلهم رحمهم الله ونفعنا بهم».اهـ والخليفة هو: أبو الفضل جعفر المقتدر، والقاضي هو: الإمام إسماعيل بن إسحق أحد أئمة المالكية.

الثاني: هدية المريد إلىٰ شيخه، ودليلها من القرآن والسُنَة.

أمَّا القرآن فقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢] قال عليٌّ عليه السلام: لمّا نزلت هذه الآية، قال لي النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: **«ما ترى، أدينارًا؟»** قلت: لا يطيقونه، قال: **«فنصف دينار»**. قلت: لا يطيقونه، قال: **«فكم؟»** قلت: شعيرة، قال: **«إنك لزَهِيدٌ»**. قال: فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١٣]، قال: «فبي خففَّ اللهُ عن هذه الأُمَّة».

رواه ابن جريرٍ، والترمذي وحَسّنه. وقوله: «شعيرة»: يعنىٰ وزنها من ذهب.

وقال عليّ أيضا: «إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية [المجادلة: ١٢]، قال: كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فناجيتُ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فكنت كلما ناجيته قدمت بين يدي نجوايَ درهمًا، ثم نُسِخَت، فلم

يعمل بها أحد فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا ﴾ الآية. رواه الحاكم، وصحّحه على شرط الشيخين، وسلَّمه الذهبي.

وروى الطبراني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «نزلت في ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ الآية، فقدمت شعيرة، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «إنك لزَهِيدٌ»، فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ الآية.

وفي سنده راوٍ مُختَلَف فيه، ويمكن الجمع بينه وبين الأول: بأن كلًّا من عليٍّ وسعدٍ لم يطّلع على قصة الآخر، فتكلم بحسب ما في علمه.

وعن ابن عبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ الآية، وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، حتى شَقّوا عليه، فأراد اللهُ أن يخفِّفَ عن نبيِّه عليه السلام، فلمّا قال ذلك، جَبُنَ كثيرٌ من المسلمين وكَفّوا عن المسألة، فأنزلَ اللهُ بعد هذا: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ الآية، فوسَّع اللهُ عليهم ولم يُضَيق.

يؤخذ من هذا: أن تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول كانت واجبة ثم نُسِخَت، وإذا نُسِخَ وجوب شيء بقي استحبابه بل سُنيته، كما في صوم عاشوراء، كان واجبًا ثم نُسخ برمضان فبقي سُنَّة.

وأما السنّة فما ثبت بالتواتر في قضايا متعددة، أن الصحابة كانوا يُهْدُون للنبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ثيابًا وطعامًا وغيرهما، وكان يقبل هديتهم، وتقدم قريبًا حديث أبي هريرة في أهل الصُّفَّة، وفيه: «إذا أتته صدقة بعث بها

إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها».

وفي "مُسند أحمد" بإسناد صحيح عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة».

وفي "المسند" أيضًا بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: كان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا أُتِيَ بطعام من غير أهله سأل عنه، فإن قيل هدية أكل، وإن قيل صدقة، قال: «**كلوا**» ولم يأكل.

بل أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بقبول الهدية ونهىٰ عن ردِّها، ففي "الصحيحين" عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: كان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يعطيني العطاء، فأقول: أعطه مَنْ هو إليه أفقر مني، فقال: «**خذه، إذا جاءك من هذا المال شيءٌ وأنت غير مُشْرِفٍ ولا سائل، فخذه فَتَمَوَّلْهُ، فإنْ شئت كُله، وإن شئت فتصدَّق به، وما لا، فلا تُتْبِعْهُ نفسك**». قال سالم بن عبدالله: «فلأجل ذلك كان عبدالله لا يسأل أحدًا شيئا، ولا يرد شيئا أُعطيه».

وفي "المسند" بإسناد رجاله ثقات، عن المطلب بن عبدالله بن حنْطَب قال: أهدىٰ عبدالله بن عامر إلىٰ عائشة -رضي الله عنها- نفقة وكسوة، فقالت للرسول: أي بُني لا أقبل من أحدٍ شيئًا. فلما خرج الرسول قالت رُدّوه عَلَيَّ، فردّوه. فقالت: إني ذكرت شيئًا، قال لي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**يا عائشة، من أعطاك عطاءً بغير مسألةٍ فاقبليه، فإنما هو رِزْقٌ عَرَضَهُ الله عليك**».

وفي "المسند" أيضا بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها: أنَّ امرأة أهدت إليها رِجْلَ شاة تُصُدِّقَ بها عليها -أي على المرأة- فأمرها النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنْ تقبلها.

وفي "المسند" أيضًا بإسناد صحيح عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: **«مَن آتاه الله مِن هذا المال شيئًا من غير أن يسأله فليقبله فإنما هو رزقٌ ساقه الله إليه»**.

فهذه الأدلة المتعدّدة وغيرها مما لم نذكره اختصارًا، مستند شيوخ الصوفية على ممر الزمان في قبول هدايا المريدين من نقود وثياب وطعام وغير ذلك، ثم هم ينفقونها على الزوّار في البيت أو الزاوية، فتكون منفعتها عامة، وبذلك يَعْظُم ثواب المُهْدِي ويَكْثُر أجره. أضف إلى ذلك أن الهدية -وإن قَلَّتْ قيمتها- تُوجِدُ محبة ومودة بين المُهدِي والمُهدَى إليه، كما قال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **«تهادُوا تحابُّوا»**. رواه أبو يعلى عن أبي هريرة بإسناد جيّد، وله طرق.

ولا شك أن المُريد إنما ينتفع في السلوك على قدر حبِّ شيخه له وعنايته به، بل كل طالب عِلمٍ من العلوم، لا يُدرِك من العِلم غايته إلا بقدر حب أستاذه له، وعنايته بتعليمه، ومن الحِكَم السائرة: «مَنْ عرف ما طلب، هان عليه ما بَذل».

الثالث: الضيافة، والأحاديث في الأمر بها والحَضّ عليها كثيرةٌ بالغةٌ حدَّ التواتر المعنوي، ويكفي حديث "الصحيحين": **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكرِم ضيفه»**. وقد جعلها الظاهرية فرضًا على الحضري والبدوي والفقيه والجاهل، والجمهور على أنها سُنّة مُرغَّبٌ فيها، وهي من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم، وللصوفية -خصوصًا الشاذلية- في القيام بحقِّها

القَدَح المُعَلَّى، فزوايا الشاذلية في مُدنِ المغرب وقُراه مُعَدَّة لاستقبال الضيوف، لا ينزل بها غريب إلا لقي أهلًا يُكرمونه ويُتحفونه، وإنْ كان في حاجة إلى مساعدة مدُّوه بها، وذلك بأن يجمع مُقدَّم الزاوية من الفقراء -الدراويش- مبلغًا من المال يُقدّمه للضيف عند سفره، وإنْ كان من أهل الطريق أو ذوي الفضل والعلم تسابقوا إلى إكرامه في بيوتهم، ومهاداته بما يليق به.

والمقصود أنّ الزوايا عندنا أشبه بالفنادق العامة المُعدّة لاستقبال النُّزلاء، إلا أنها لا تأخذ أجرًا، بل تساعد من يرجو المعونة وتهادي من يستحق التكريم، هذا إلى ما يقوم به أصحابها من عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وإقامة حفلات للمولد النبوي الشريف تكون خيرًا وبرًّا للمساكين والضعفاء بما يتناولون من طعام وصدقات.

هذا بعض فضل التصوّف ومزاياه في القُطْر المَرّاكشي، قبل أنْ تكثر فيه النزعة الوَهّابية، مع ابتلائه بالأحزاب السياسية التي فرّقت بين أهله وجعلتهم شيعًا وفِرَقًا، وبَثّت فيه جُرْثُومة التَحَلُّل من الأخلاق والدين، نسأل الله اللطف والسلامة.

الرابع: صلة الإخوان والأقارب وغيرهم بمختلف أنواع الصلات المادية والأدبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة تفوق الحَصْر، منها ما تقدم قريبًا، ومنها ما في "أوسط معاجم الطبراني" عن عمر، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم: **«أفضلُ الأعمالِ إدخالُ السُّرورِ على المؤمن، كَسَوتَ عَوْرتَهُ أو أشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ، أو قضيتَ له حاجَتَهُ»**.

ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر، ولفظه: **«أحبُّ الأعمال إلى الله عزَّ**

وجلَّ سرورٌ تُدخله على مسلمٍ، أو تكشف عنه كُربةً، أو تطرد عنه جوعًا، أو تقضي عنه دينًا».

وله طرق وألفاظ متعددة، وأهلُ التصوّف مَضرب المثل في التواصل والتعاون ومساعدة أصحاب الحوائج في قضائها، وكأنَّ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عناهم بقوله: «**إنّ للهِ خلقًا خلَقهم لحوائج الناسِ، يَفزعُ الناسُ إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله**». رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وله طرق.

وممن أخذ من هذا الخُلُق بالحظِّ الأوفر: مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه، فقد كان لا يمر عليه يوم دون أن يقضي دينًا عن مَدِين، أو يدفع أُجرة عن شخص تأخّر في دفع الإيجار، أو يكسو فقيرًا ليس عنده ثياب وإذا كان له أولاد كساهم معه، أو يُصلِح بين متخاصِمَيْن طالت خصومتهما واشتد عداؤهما، فَيَدَعَهُمَا أخوَين متحابّين، أو يشفع عند الحاكم في مظلوم -علىٰ أن يبعث رسولًا من طرفه، فما مشىٰ إلىٰ حاكم قط، ولقد أنقذ بشفاعته شخصًا من الإعدام حكمت به عليه الحكومة الإسبانية الغاشمة لاتهامه بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم- ويتعاهد بيوتًا كثيرة في الأعياد والمناسبات، كزكاة الفطر، واللحم في عيد الأضحىٰ، وغير ذلك. أمّا تَصَدُّقه بالثياب التي عليه، وقعوده في البيت، حتىٰ يتيسر له غيرها، فقد حصل منه مرات عديدة، حتىٰ كان بعض الإخوان ممن له عليه دالة يعتب عليه في ذلك، فيظهر له من الثقة بالله والتوكل عليه ما يحمله علىٰ تشجيع الشيخ في الاستزادة من التصدُّق والإعطاء.

هذه أخلاق الصوفية كما شاهدناها عيانًا، وقرأنا عنها في كتب التراجم

والطبقات، فإذا وجد في شيوخ الطريقة من هو على ضدِّ هذه الخصال، فهو دَعِيّ دخيل، والتصوف بريء منه ومن أمثاله.

مسألة

ويجب هنا أن نعرض لرد مسألة طالما تشدّق بها المنتقدون للتصوّف، ذلك أنهم يزعمون أنّ الصُّوفية أصحاب كسل وخُمول وتواكل، وأنّ الإسلام يدعو إلى العمل والكسب والسعي في طلب الرزق، وهذا كلام مَن قَصُرَ نظره على الجانب الماديّ الضَيّق المحدود، وانصرفَ عن الجانب الروحي الواسع الشامل، مع أنّ الإسلام راعَى الجانبين، وأعطى لكل منهما حظه من العناية والاعتبار، بل غَلَّب الجانب الروحي لأنه أعم وأبقى، وأسباب الرزق كما تكون ماديّة للعوام كالتجارة والصناعة مثلا، تكون روحيّة للخَوَاص كالصلاة والتقوى، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ١٠ - ١١].

وتقدم أنّ أهلَ الصُفَّة كانوا أكثر من مائة، لا أهل لهم ولا مال، وكان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يُنفِق عليهم، ولم يقل لهم: تَكَسّبوا واسعوًا على رزقِكم بالتجارة وغيرها. نعم، لَمْ يقل لهم هذا أصلًا، بل دافع اللهُ تعالى عنهم، حين قال المنافقون في حقهم: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ فردّ اللهُ تعالى عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، وهذا شرفٌ عظيم لأهل الصفة، ينطوي علىٰ التنويه بما كانوا عليه من الانقطاع للعبادة والتفرغ لها.

أما ما رواه أبو داود في "مراسيله"، عن أبي قُلابة: أنّ ناسًا من الصحابة قَدِمُوا يثنون علىٰ صاحب لهم خيرًا، قالوا: ما رأينا مثل فلان قط، ما كان في مسيرٍ إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلًا إلا كان في صلاة، قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**فمَنْ كان يكفيه ضَيْعَتَه؟**» حتىٰ ذكر من كان يَعْلِفُ جملَه أو دابَّته؟ قالوا: نحن. قال: «**فكلكم خيرٌ منه**». فهو حديث ضعيف؛ لأنه مُرسَل.

وعلىٰ فَرْضِ صحته، فهو محمولٌ علىٰ أنَّ ذلك الشخص كان يستخدم غيره في شؤونه الخاصة به، كعلف دابته وتهيئة مكان نومه وإعداد طعامه ونحو ذلك، كما هو صريح الحديث، وليس من المروءة أن يستخدم الشخص غيره في مثل ذلك، بل يقوم هو بنفسه بإعداده، لاسيَّما في السفر المَبْنِيّ علىٰ التعاون التام.

ألا ترىٰ إلىٰ النبيّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين أراد الصحابة -وكانوا معه في سفر- أن يطبخوا طعامًا لغدائهم، وتعهَّد بعضهم بذبح الشاة، وآخر بسَقي الماء، فتعهَّد هو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بجمع الحطب، فقال الصحابة: نكفيك هذا يا رسول الله، قال: «**علمت أنكم تكفونني ذلك ولكن كرهتُ أن أتميَّزَ عنكم**». أو كما قال.

وهذا من كمال المروءة، وآداب الصحبة والمعاشرة، وهو بمعزل عما نحن فيه، فالذين يستدلون بذلك الحديث المُرسل علىٰ الكَسب والسعي، مخطئون في فهمه، مع غفلتهم عن ضعفه.

ومما يؤيد ما نقول: حديث أنس، قال: «كان أَخوان علىٰ عهد النبيّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فكان أحدهما يأتي النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقال: «**لعلك تُرزق به**». رواه الترمذي، وصحَحَه الحاكم وسلَّمه الذهبي.

فالنبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أخبر الأخ المحترف، بأنّ الله يرزقه ببركة إنفاقه علىٰ أخيه المتفرغ للعبادة وملازمة الرسول، وليس بعد بيان الله ورسوله بيان.

الأولــياء

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]

قال الزَمَخْشَريُ في "الكشاف": «الوليُّ: مَن تَولّىٰ الله بالطاعة، فتولَّاه الله بالكرامة».

وقال السعد في "شرح العقائد النسفية"، والجلال المحلي في "شرح جمع الجوامع": «الوليُّ: العارف بالله حسبما يمكن، المُواظب علىٰ الطاعات، المُجتنب للمعاصي، المُعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات».

وقيل: الوليّ من يحب أخاه المؤمن لا يُحِبه إلا لله، وقيل غير ذلك.

وهذه الأقوال-وإن كانت في الظاهر مختلفة- فهي في الحقيقة متفقة، إذ ما من وليٍّ إلا وهو مُتَّصِفٌ بما ذُكِرَ فيها من الصفات ومُتَّسِم بغيرها من كريم

الخلال والسمات، وجاءت الأحاديث في هذا الباب مختلفة كاختلاف الأقوال، وذلك محمول على اختلاف الأحوال، مع قصد الشارع الحضّ على أنواع من فضائل الأعمال، ونحن نورد منها ما تيسر:

١- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إنّ الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب...**» الحديث، وتقدم أول الكتاب.

٢- عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم:« **إنّ من عباد الله ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يَغْبِطُهُم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامةِ بمكانهم مِن الله تعالى**» قالوا: يا رسول الله، فخبّرنا مَنْ هم؟ قال: «**هم قومٌ تحابُّوا برُوح الله على غير أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطَوْنها فوالله إنَّ وجوهَهم لنورٌ، وإنهم لعلى نورٍ، لا يخافون إذا خاف الناسُ، ولا يحزنون إذا حزن الناسُ**» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

رواه أبو داود في "سننه"، وروى النسائي نحوه عن أبي هريرة، وله طرق كثيرة.

٣- عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، عن النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه استَحقَّ وِلايةَ الله: حِلمٌ أصيلٌ يدفع به سَفَه السَّفيه عن نفسه، ووَرَعٌ صادقٌ يَحْجِزُهُ عن معاصي الله، وخُلُق حَسَنٌ يداري به النَّاسَ**».

رواه ابن أبي الدنيا في "كتاب الأولياء".

٤- عن عمرو بن الجَموح رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتىٰ يحبَّ لله تعالىٰ ويبغضَ لله، فإذا أحبَّ لله تبارك وتعالىٰ وأبغض لله، فقد استحقَّ الولاية لله». رواه أحمد في "المسند".

٥- عن ابن عبَّاسٍ قال: سُئل رسولُ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مَنْ هم أولياءُ الله؟ قال: **«هم الذين يُذْكَرُ الله عند رؤيتهم»**. رواه النسائي، والبزار.

ورواه ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وغيرهما عن سعيد بن جبير مرسلًا.

وله طرق، منها: عن أنس قال: قالوا: أيُّنا أفضل، كي نتخذه جليسًا معلمًا؟، قال: **«الذي إذا رُؤِيَ ذُكِرَ الله برؤيته»**. رواه الحكيم الترمذي.

٦- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: **«ما جُبِلَ وليٌّ لله عزَّ وجلَّ إلَّا على السَّخاءِ وحُسْنِ الخُلُقِ»**. رواه أبوالشيخ ابن حيان في "كتاب الثواب".

٧- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: **«قال الله تعالى: حقَّتْ محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وحقَّتْ محبَّتي للمُتَزاوِرين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمُتَجالِسين فيَّ، الذين يُعَمِّرُون مساجدي بذكري، ويُعَلِّمُون النَّاسَ الخيرَ، ويدعونهم إلى طاعتي، أولئك أوليائي الذين أُظِلُّهم في ظلِّ عَرْشي، وأُسْكِنُهم في جِواري، وأؤمِّنهم مِن عذابي، وأُدخلهم الجنَّة قبل الناس بخمسمائة عام، يتنعَّمون فيها وهم خالدون»**، ثم قرأ نبيُّ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

﴿يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] رواه ابن مَرْدُويَه في "تفسيره".

٨- عن ابن عبَّاسٍ قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**يقول الله تعالىٰ: إنّما أتقبَّل الصَّلاة مِمَّنْ تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خَلْقي، وكَفَّ نفسه عن الشَّهوات ابتغاء مَرْضاتي، فقطع نَهارَهُ في ذكري، ولم يَبِتْ مُصِرًّا على خطيئته، يُطعم الجائعَ، ويكسو العاري، ويرحم الضعيفَ، ويؤوي الغريبَ، فذاك الذي يُضيءُ وجههُ كما يُضيءُ نورُ الشمسِ، يَدعوني فأُلبِّي، ويَسألني فأُعطي، ويُقْسِمُ عليَّ فأَبَرّ قَسمَه، أجعل له في الجهالة عِلْمًا، وفي الظُّلمة نورًا، أكلأه بقوتي، وأستحفظه ملائكتي**». رواه أبو نعيم في "الحلية"، والبزار بنحوه.

والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة، يستخلص الباحث من مجموعها أنَّ الوليَّ مَن تولَّىٰ الله بأنواع القُرُبَات، فتولَّاه اللهُ بأنواعٍ من المواهب والمكرمات.

ونُلحق بالأحاديث السابقة أثرًا جامعًا في وصف الأولياء، رواه أحمد في "الزهد"، وابن أبي حاتم في "التفسير"، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: «قال الحواريون: يا عيسىٰ، مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال عيسىٰ -عليه السلام- : الذين نظروا إلىٰ باطن الدُّنيا حين نظرَ الناسُ إلىٰ ظاهِرِها، والذين نظروا إلىٰ آجل الدُّنيا حين نظرَ الناسُ إلىٰ عاجِلِها، وأماتوا منها ما يَخْشَونَ أن يُميتهم، وتركوا منها ما علموا أنْ سيتركهم، فصار استكثارهم منها استِقْلالًا، وذكرهم إيَّاها فَوَاتًا، وفرحهم بما أصابوا منها حزنًا، وما عارضهم مِن نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفعتها بغير الحقِّ وضعوه، بَلِيَت الدنيا عندهم فليس يُجدِّدونها، وخربت بينهم فليس يُعمِّرونها،

وماتت في صدورهم فليس يُحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفَرِحين، وباعوها فكانوا ببيعها هم المربحين، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المَثُلات، فأحبّوا ذِكْرَ الموتِ وتركوا ذِكْرَ الحياةِ، يحبُّون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتاب وبه علموا، ليسوا يرون نائلًا مع ما نالوا، ولا أمانيّ دون ما يرجون، ولا خوفًا دون ما يحذرون».

الأبــدال

وهم طائفةٌ من الأولياء يُسمَّوْنَ بهذا الاسم، وقد وردت أحاديث وآثار في تَسْمِيَتِهِم ووصفهم وعلاماتهم وأماكن وجودهم، أفردها الحافظ السيوطي برسالة خاصة سمّاها "الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنُّجباء والأبدال"، قال في خطبتها: «وبعد: فقد بلغني عن بعضٍ من لا علم عنده، إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء، مِن أنَّ منهم أبدالًا ونُقباء ونُجباء وأوتادًا وأقطابًا، وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك، فجمعتها في هذا الجزء لتُستفاد، ولا يُعَوَّل على إنكار أهل العناد».

ولو فُرِض أنه لم يرد في ذلك حديث ولا أثر، وكان مجرد اصطلاح تواطأ عليه الصوفية، لَمَا صح إنكاره؛ لأنَّ كلَّ طائفةٍ من طوائف العلماء: كالفقهاء، والأصوليين، والنحاة، والمناطقة، وأهل المعاني، اصطلحوا على ألفاظ لها معاني خاصة، يتفاهمون بها فيما بينهم، ودوَّنوها في كتبهم، وصارت جزءًا من

عُلومهم، ولم يعترض عليهم أحد في ذلك. فما وجه تخصيص الصوفية بالاعتراض؟! على أن لفظ الأبدال اشتهر في عهد السلف، ووصف به جماعة من الأئمة.

قال الحافظ السخاوي في "المقاصد الحسنة" -بعد أن تكلم على بعض طرق حديث الأبدال- : «ومما يتقوى به الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة، قول إمامنا الشافعي -في بعضهم- : «كنا نعده من الأبدال»، وقول البخاري في غيره: «كانوا لا يشكُّون أنه من الأبدال»، وكذا وصف غيرهما من النقَّاد والحفَّاظ والأئمة غير واحد بأنه من الأبدال».اهـ

ونُقِل عن يزيد بن هارون -أحد الحفاظ- قال: «الأبدال هم أهل العلم». وعن الإمام أحمد: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟».

وممن وُصِفَ بأنه من الأبدال: الحسن البصري، وحماد بن سلمة، وأبو توبة الحلبي شيخ أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، ومحمد بن واسع، وحسان بن أبي سنان، ومالك بن دينار، ووكيع بن الجراح، وخالد بن معدان، وغيرهم كثير تجد تراجمهم في كتب الرجال وطبقات الحفاظ، ومن راجع "تذكرة الحفاظ" للذهبي، و"تهذيب التهذيب" لابن حجرٍ، وجد فيها كثيرًا من الحُفّاظ وصِفُوا بالبَدَلِيّة.

وبعد هذا، فاستمع إلى بعض الأحاديث في هذا الموضوع:

١- عن أمِّ سلمة رضي الله عنها، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **«يكون اختلافٌ عند موتِ خليفةٍ، فيخرج رجل من المدينة هاربًا إلى مكة،**

فيأتيه ناسٌ من أهل مكة، فيُخْرجونه وهو كاره، فيُبايعونه بين الرُّكن والمَقام، ويُبعث إليه بعثٌ من الشام، فيُخْسَف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك، أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق...» الحديث، رواه أبو داود، وأحمد، وابن أبي شيبة، وأبو يعلىٰ، والحاكم، والبيهقي، وهو حديث صحيح.

٢- عن شريح بن عبيد قال: ذُكر أهلُ الشام عند عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام -وهو بالعراق- فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا، سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**الأبدال بالشام وهم أربعون رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب**». رواه أحمد بإسناد صحيح، إلا أن فيه انقطاعًا بين شريح وعليّ.

ورواه الحسن بن عرفة، وابن عساكر، عن شريح أيضًا قال: ذُكر أهل الشام عند عليّ عليه السلام فقالوا: يا أمير المؤمنون العنهم، فقال: لا، إني سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**إنَّ الأبدالَ بالشام يكونون، وهم أربعون رجلًا، بهم تُسقون الغيثَ، وبهم تُنصرون على أعدائكم، ويُصرف عن أهل الأرض البلاء والغَرَق**».

وفي "المُستدرك"، عن عبدالله ابن زرير الغافقي أنه سمع عليًّا يقول: «لا تسُبُّوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال، وسُبُّوا ظَلَمَتَهم». صحّحه الحاكم، وسلّمه الذهبي.

والآثار عن عليٍّ عليه السلام في الأبدال كثيرة، واردة بطرق متعددة، وهي مرفوعة حكمًا، لأنها مما لا مجال للرأي فيه.

٣- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمن، فبهم تُسقون وبهم تُنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر**». قال سعيد: وسمعت قتادة يقول: «لسنا نشك أن الحسن-البصريَّ- منهم». رواه الطبراني في "الأوسط"، قال الحافظ الهيثمي: «إسناده حسن».

٤- عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال: «**الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل خليل الرحمن عزَّ وجلَّ، كلما مات رجلٌ أبدل الله تعالى مكانه رجلًا**». رواه أحمد، وهو حديث حسن.

وفي "مُسند البزار"، و"معجم الطبراني"، عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**لا يزال في أُمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبِهم تُمطَرون، وبهم تُنصَرون**» قال قتادة: «إني أرجو أن يكون الحسن منهم».

وقوله في هذا الحديث «ثلاثون» لا ينافي أنهم أربعون كما في الأحاديث الكثيرة؛ لأن العدد لا مفهوم له، أو أُخْبِر أنهم ثلاثون ثم أعلَمَه الله بزيادتهم إلىٰ أربعين.

٥- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**خيار أُمَّتي في كلِّ قرنٍ خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون، ولا الأربعون، كلما مات رجلٌ أبدل الله من الخمسمائة مكانه، وأدخل**

من الأربعين مكانهم» قالوا: يا رسول الله، دُلَّنا على أعمالهم، قال: «**يَعْفُونَ عَمَّن ظَلَمهم، ويُحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله**». رواه الطبراني، وأبو نعيم، وتمام، وابن عساكر.

وروى الخَلَّال في "كرامات الأولياء"، عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لا يزال أربعون رجلًا يحفظ الله بهم الأرض، كلما مات رجلٌ أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلِّها**». وهذان الحديثان وإن كانا ضعيفين، فهما مؤيَّدان بالأحاديث السابقة وغيرها.

بم استحق الأبدال تلك الرتبة؟

رتبة البدلية من الرتب العزيزة، لا تُنال إلا بشروط بيَّنتها الأحاديث والآثار، فإذا ادّعى شخص أنه من الأبدال أو ادُّعي فيه ذلك، وكان خلوا من تلك الشروط، عَلِمنا أنَّ دعواه باطلة وعرفنا أنه مِن جُملة الدُّخلاء الذين شَوَّهوا التصوّف وأهله بما اقترفوا من آثام.

فمن شروط الأبدال ما تقدم قريبًا: أنهم يَعفون عَمّن ظَلَمهم، ويُحسِنون إلى مَنْ أساء إليهم، ويَتَواسون فيما آتاهم الله تعالى، وهذه صفات عزيزة قلَّ مَنْ يَتخلَّق بها.

ومن شروطهم ما جاء في الحديث عن عليٍّ -عليه السلام- قال: سألت رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن الأبدال؟ قال: «**هم ستون رجلًا**»، فقلت: يا رسول الله جَلِّهم لي، قال: «**ليسوا بالمتنَطِّعين ولا بالمبتَدعين ولا بالمُتَعمّقين، لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكن بسخاء**

الأَنفُس وسلامة القلوبِ والنصيحة لأئمتهم».

رواه ابن أبي الدنيا في "كتاب الأولياء"، والخَلَّالُ في "كرامات الأولياء"، وزاد في روايةٍ أخرىٰ: «**إنهم يا عليُّ في أُمَّتي أقل مِنَ الكبريت الأحمر**».

وجاء في حديث أنس، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ دِعامة أُمتي عُصَبُ اليمن، وأَبدال الشام وهم أربعون رجلًا، كلما مات رجلٌ أبدل الله مكانه آخر، ليسوا بالمتماوتين ولا بالمتهالكين ولا المتناوشين، لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، وإنما بلغوا ذلك بالسَّخَاء وصحة القلوب والمُناصحة لجميع المسلمين**».

ووَرَد عن الحسن البصري قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**إنّ بُدلاء أُمَّتي لم يدخلوا الجنَّة بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، ولكن دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور وسَخاوة الأَنفُس والرحمة بجميع المسلمين**». رواه الحكيم الترمذي، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، وغيرهما.

وروىٰ ابن أبي الدنيا في "كتاب الأولياء": عن بكر ابن خُنَيسٍ يرفعه: «**علامة أبدال أُمتي أنّهم لا يلعنون شيئًا أبدًا**».

فالمبتدعة ومن علىٰ شاكلتهم من المتنطِّعين والمُتَعَمِّقين والمتزمِّتين لا نصيب لهم في رتبة البدلية، وكذلك المُتماوتون المُتهالكون الذين يتكلَّفون السَّمْت والوقار. نعم، ولا ينالها اللعَّانون الطعَّانون، سُفهاء اللسان، خُبثاءُ القلب.

ولذا قال الحارث ابن حومل لرجاء بن حيوة -وهما تابعيان- : «يا رجاء اذكر لي رجلين صالحين من أهل بَيْسان -بلد الشام- فإنه بلغني أن الله تعالىٰ اختصَّ أهل بيسان برجلين صالحين مِن الأبدال، لا يموت واحدٌ إلا أبدل الله

مكانه واحدًا، ولا تذكر لي منهما متماوتًا ولا طَعَّانًا على الأئمَّة، فإنه لا يكون منهما الأبدال». رواه ابن عساكر وغيره.

فالأبدال: أسخياء سُمَحَاء، سَلِيمُو الصدور، لا يحملون حقدًا ولا غشًّا، أعفَّاء اللسان، لا يلعَنَون ولا يَسُبُّون وهم -إلى جانب هذا- إيجابيون في الحياة، يرحمون المسلمين وينصحونهم، ويسعون في إيصال الخير لهم، وببركاتهم وتَوجُّهاتهم ينزل الغيث، ويُكشف الكَرْب، ويحصل النصر على الأعداء.

لا جَرَمَ إن كان انقراضهم في آخر الزمان إيذانًا بانقراض الخير، وانتهاء الدنيا، كما جاء في حديثٍ عن أنسٍ مرفوعًا: «**فإذا جاء الأمر قُبِضوا كُلهم فعند ذلك تقوم الساعة**». رواه الترمذي الحكيم، وابن شاهين، وابن عدي وغيرهم.

النُّجباء والنُّقباء والأوتاد والغوث

هذه رتب في الولاية اصطلح عليها الصوفية، وهي مأخوذة عن سلف الأمة وأئمتها، فعن أبي الطفيل -وهو صحابي- عن عليّ -عليه السلام- قال: «الأبدال بالشام، والنُّجباء بالكوفة». رواه ابن عساكر.

ورُوِيَ عنه أيضا قال: «الأبدال من الشام والنُّجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق».

وروى ابن عساكر أيضًا عن أحمد بن أبي الحواري قال: «سمعت أبا سليمان يقول: الأبدال بالشام، والنُّجباء بمصر، والعُصَب باليمن، والأخيار بالعراق».

وروى هو والخطيب البغدادي، عن الكتّاني قال: «النُّقباء ثلاثمائة، والنُّجباء سبعون، والبُدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعُمُد أربعة، والغوث

واحد. فمسكن النُّقباء المغرب، ومسكن النُّجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سيّاحون في الأرض، والعُمُد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عَرَضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النُّقباء، ثم النُّجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العُمُد، فإن أُجيبوا، وإلا ابتهل الغوث، فلا تتم مسألته حتىٰ تجاب دعوته».

والعُمُد -بضم العين والميم- هم الأقطاب، وهم أربعة في كلِّ وقتٍ، والعُصَب -بضم العين وفتح الصاد، ويقال: عصائب، كما تقدم في حديث أم سَلَمَة-: طائفة من الزُّهّاد، كما في "النهاية".

وقال ابن أبي الدنيا: حدّثنا أبو حاتم الرازي -الإمامُ العَلَم-: حدَّثنا عثمان بن مطيع: حدَّثنا سفيان بن عيينة قال: قال أبو الزناد -أحد شيوخ الإمام مالك- : «لمّا ذَهَبَت النبوة، وكانوا أوتاد الأرض، أخلف الله مكانهم- يعني الأنبياء- أربعين رجلًا من أُمّةِ محمدٍ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، يُقال لهم الأبدال، لا يموت الرجل منهم حتىٰ يُنشيء اللهُ مكانه آخر يخلفه، وهم أوتاد الأرض، قلوب ثلاثين منهم علىٰ مثل يقين إبراهيم عليه السلام، لَمْ يَفْضُلوا الناس بكثرة الصلاة ولا بكثرة الصيام ولا بحُسن التخشّع ولا بحُسن الحِلية، ولكن: بصدق الورع وحُسن النية وسلامة القلب والنصيحة لجميع المسلمين، ابتغاء مرضاة الله، بصبرٍ وخيرٍ وبرٍّ ولبٍّ حليم، وتواضعٍ في غير مذلّة، لا يلعنون أحدًا ولا يُؤذون أحدًا، ولا يتطاولون علىٰ أحدٍ تحتهم ولا يُحقّرونه، ولا يحسدون أحدًا فوقهم، ليسوا بمتخشّعين ولا متماوتين ولا معجبين، لا يحبون لدنيا ولا يحبون الدنيا، ليسوا اليوم في وحشة ولا غدًا في غفلة».

الكَرامات

اتفق أهل السُنّة على إثبات الكرامات، وأنّ الله يَخُصّ بها بعض أوليائه، للأدلة الدّالة على وقوعها في الكتاب الكريم والسنّة الصحيحة، بل المتواترة.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري -إمام الأشاعرة- في كتاب "مقالات الإسلاميين واختلاف المُصلِّين": «جملة ما عليه أهل الحديث وأهل السُّنَّة: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورُسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، لا يَرُدون من ذلك شيئا»، وذكر العقيدة، إلى أن قال: «وأنّ الصالحين قد يجوز أن يَخُصّهم اللهُ تعالى بآياتٍ تظهر عليهم». وقال في آخر العقيدة: «فهذه جملة ما يأمرون به، ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب». ونقله الحافظ ابن القيم في كتابه "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح".

وقال الإمام الحافظ القدوة محيي الدين النووي في كتابه "بستان العارفين": «اعلَم أنَّ مذهب أهل الحقِّ: إثبات كرامات الأولياء، وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار، ويدل عليها دلائل العقول وصرائح النقول، أما دلائل العقل: فهي أمر يمكن حدوثه ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقدورًا كان جائز الوقوع، وأما النقول: فآيات في القرآن العظيم، وأحاديث مستفيضة».

وفي "شرح المقاصد" لسعد الدين التفتازاني: «ظهور كرامات الأولياء، تكاد تلحق بمعجزات الأنبياء، وإنكارها ليس بعجيب من أهل البدع

والأهواء، إذ لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم قط ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شيءٍ مع اجتهادهم في أمور العبادات واجتناب السيئات فوقعوا في أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات يُمزِّقون أديمهم ويمضغون لحومهم لا يسمُّونهم إلا باسم الجهلة المتصوِّفة ولا يعدُّونهم إلَّا في عداد آحاد المبتدعة، قاعدين تحت المثل السائر: «أوسعتهم سبًّا وأودوا بالإبل»، ولم يعرفوا أنَّ مبنى هذا الأمر على صفاء العقيدة ونقاء السريرة، واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة، وإنما العجب من بعض فقهاء السُّنَّة، حيث قال - فيما روي عن إبراهيم بن أدهم أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية، وفي ذلك اليوم بمكة - : أن من اعتقد جواز ذلك يكفر، والإنصاف ما ذكره الإمام النَّسَفي، حين سُئل عمّا يُحكى أنَّ الكعبة كانت تزور أحدًا من الأولياء، هل يجوز القول به؟ فقال: نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة».

وليت شِعْري، ماذا كان يقول ذلك الفقيه المتسرِّع إلى الإكفار لو رأى مخترعات اليوم، وشاهد الطائرة تنقل الشخص في بضع ساعات مسافات كانت تقطع في شهور؟! فإذا كان العلم وصل إلى هذا وأكثر منه فكيف نستبعده على قدرة الله تعالى؟!.

ومما يعاب على فقهاء الحنفية تسرعهم إلى الإكفار لأسباب بعيدة عن الكفر، ومن قرأ باب الردّة في كتبهم رأى العجب، من ذلك قولهم: من صَغَّر عِمامَة العالِم فقال: عُمَيِّمَة فإنه يكفر؛ لأنه صغّر ما عظّم الله!.

ومما ثبت بالشُّهرة ما حكاه العلاّمة أحمد بابا التنبكتي المالكي في "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" عن الشيخ عبدالخالق التونسي، عن شيخه شعيب

ابن الحسن الأندلسي الشهير بأبي مدين الغوث -وهو شيخ ابن العربي الحاتمي- قال: «سمعت أن رجلًا يُسمَّىٰ موسىٰ الطيار يطير في الهواء ويمشي علىٰ الماء، وكان رجل يأتيني عند طلوع الفجر فيسألني عن مسائل الناس، فوقع لي ليلة أنه موسىٰ الطيار الذي أسمع به، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل فإذا هو الذي يسألني، فقلت له: أنت موسىٰ الطيار؟ قال: نعم. ثم سألني وانصرف، ثم جاءني مع آخر، فقال لي: صلَّيتُ الصبح ببغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في الصبح فأعدنا معهم وبقينا في مكة حتىٰ صلينا الظهر، فجئنا القدس، فوجدناهم في الظهر، فقال صاحبي هذا: نُعيد معهم، فقلت: لا، فقال: ولِمَ أعدنا الصبح بمكة؟ فقلت له: كذلك كان شيخي يفعل وبه أمرنا، فاختلفنا. قال أبو مدين: فقلت لهم: أمّا إعادة الصبح بمكة فإنها عين اليقين، وببغداد علم اليقين، وعين اليقين أقوىٰ من علم اليقين، وصلاتكم بمكة وهي أم القرىٰ فلا تعاد في غيرها، قال: فقنعا به وانصرفا».

والمقصود: أن كرامات الأولياء أجمع علىٰ إثباتها علماء السُّنَّة، ووافقهم من المعتزلة أبو الحسين البصري، وقد أُفرِد هذا الموضوع بالمؤلفات الكثيرة، وكتابنا "الحجج البينات في إثبات الكرامات" مهمٌّ جدًّا ينبغي مراجعته، ففيه ما لا يوجد في غيره، مع تخريج الأسانيد، وتوخِّي الصحة بغاية الدقة.

ونشير هنا إلىٰ بعض الأدلة توفية للبحث حقه:

١- الأمر الخارق للعادة إن ظهر علىٰ يد مدّعي النبوة، فإمّا أن يكون قبل النبوة أو بعدها، فإن كان قبلها: كَشَقِّ صدره الشريف، وإظلال الغمامة له في مسيره إلىٰ الشام، سُمِّي: إرهاصًا، وإن كان بعدها: فإمّا أن يكون مصحوبًا

بالتحدي: كالقرآن وانشقاق القمر، فيُسمَّىٰ: معجزة، وإمّا أن يكون غير مصحوبًا بالتحدي: كحنين الجذع، ونبع الماء من الأصابع الشريفة، فيُسمَّىٰ: آية.

وإنْ ظهر الخارق للعادة علىٰ يد مدّعي النُبوة بخلاف مُراده، سُمّيَ: إهانة، مثل ما روي أن مُسيلمة الكذَّاب دعا لأعور بأن يفتح الله عينه فعمي، ومسح بيده رأس يتيم فقرع، وَبَلَغهُ أنَّ النبيّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تَفَلَ في بئرٍ فكَثُر ماؤها وعَذُب بعد أن لم يكن كذلك، فتفل هو في بئرٍ ليَعْذُب ماؤها، فصار ملحًا أُجاجًا.

وإن ظهر الخارق علىٰ يد مؤمن صالح فهو: الكرامة، أو علىٰ يد فاسق كالساحر مثلًا فهو: استدراج، وقد يقع الخارق لبعض عوام المسلمين تخليصًا له من محنة أو مكروه، ويسمىٰ: معونة.

٢- قولهم: «ما وقع معجزة لنبيٍّ جاز أن يكون كرامة للوليّ » محمول علىٰ الآيات التي لم يقع بها التحدي، أما المعجزة التي وقع بها التحدي: كالقرآن الكريم، فلا.

نبَّه علىٰ هذا المعنىٰ العلاّمة الأبي في "شرح مُسلم"، ونحوه قول القشيري: «إنّ كرامات الأولياء لا تنتهي إلىٰ نحو ولدٍ دون والد».اهـ

يشير إلىٰ ولادة عيسىٰ عليه السلام، فهي آية من الله لنبيه ولِأُمه بسببه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[المؤمنون: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[مريم: ٢١]

٣- في القرآن الكريم آيات تُثبت كرامات الأولياء، منها قصة أصحاب

الكهف ونومهم أكثر من ثلاثة قرون... إلخ ما قَصّه اللهُ من خبرهم العجيب ولم يكونوا أنبياء.

ومنها قصة مريم عليها السلام، وأن زكريا عليه السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وقد كانت صِدِّيقةً بنصِّ القرآن.

ومنها في قصة سليمان عليه السلام، قول الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] وأتى به في غمضة عين، أي سرير ملكة سبأ.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًّا نذكر منها عشرة كلها صحيحة:

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غارٍ، فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسَدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنْجِيكُم من هذه الصخرة إلَّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجلٌ منهم: اللهمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما -أي لا أقدِّم في شرب اللبن عليهما- أهلًا ولا مالًا. فنأى بي طلب شجرٍ يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر والصبية يتضاغَّون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا**

يستطيعون الخروج». قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «قال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عمٍّ كانت أحبَّ الناس إليَّ، فأردتها عن نفسها، فامْتَنَعَت مني، حتى أَلَمَّت بها سَنَةٌ من السنين، فجاءتني، فأعطيتُها عشرين ومائة دينار، على أنْ تُخَلِّي بيني وبين نفسها فَفَعَلَت، حتى إذا قَدَرْتُ عليها، قالت: لا أُحِلُّ لك أنْ تفض الخاتم إلَّا بحقِّه، فَتَحَرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانْصَرَفْتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتَرَكْتُ الذهب الذي أَعْطَيْتُهَا، اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها».

قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «وقال الثالث: اللهم استأجَرْتُ أُجَرَاء وأعطيتُهُم أجرهم، غير رجلٍ واحدٍ، ترك الذي له وذهب، فَثَمَّرْتُ أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال لي: يا عبدالله أدِّ إليَّ أجري فقلتُ: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا، اللهمَّ إنْ كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فانطلقوا يمشون». رواه البخاري، ومسلم.

٢- عن أبي هريرة عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جُريج، كان يُصلِّي، جاءته أُمه فَدَعَته، فقال: أُجيبها أو أُصلي؟، فقالت: اللهمَّ لا تُمِته حتى تُريه وجوه المومِسات، وكان جُريج في صومعته فتعرَّضتْ له امرأةٌ فكلَّمته، فأَبى، فأَتَتْ راعيًا، فأمكَنَتْهُ من نفسها فولدت غلامًا، فقالت: من جُريج، فَأَتَوْهُ

فكسروا صومعته وأنزلوه وسبُّوه، فتوضَّأ وصلَّى، ثُمَّ أتى الغلام فقال: مَن أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي. وكانت امرأة تُرضع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجلٌ راكبٌ ذو شارة، فقالت: اللهمَّ اجعل ابني مثله، فترك ثديها، فأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثمَّ أقبل على ثديها يمُصُّه». قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يمُصُّ أصبعه، **«ثم مُرَّ بأَمَة، فقالت: اللهمَّ لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها وقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت له ذلك، فقال: الراكب جبّارٌ مِنَ الجبابرة، وهذه الأمَة يقولون: سَرقْتِ زَنَيْتِ، ولم تفعل».** رواه البخاري، ومسلم.

٣- عن أبي هريرة، عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسّلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشُهداء أُشْهِدهُم، قال: كفى بالله شهيدًا، قال:فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صَدَقْتَ، فدفعها إليه إلى أجل مُسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يَقْدُمُ عليه للأجل الذي أجَّله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زَجَّجَ موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تَسَلَّفْتُ فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلتُ: كفى بالله كفيلًا، وسألني شهيدًا، فقلتُ: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني جَهِدْتُ أنْ أجد مركبًا، أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى وَلجَت فيه ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها حطبًا

لأهله، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قَدِمَ الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مَرْكب لآتيك بمالك فما وجدت مَرْكبًا قبل الذي أتيتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قال: أُخبرُكَ أنّي لم أجد مركبًا قبل الذي جئتُ فيه، قال: فإنَّ الله قد أدَّى عنك الذي بَعَثْتَ في الخشبة، وانصرف بالألف دينار راشدًا». رواه البخاري، وأحمد، والنسائي، وابن حِبَّان، وغيرهم.

٤- عن أبي هريرة أيضًا: أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**بَيْنا رجل في فَلَاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سَحَابة : اسْقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السحابُ، فأفرغَ ماءه في حَرّة، فإذا شَرْجة من تلك الشِّراج قد استوعبتْ ذلك الماء كُلَّه، فتتبَّع الماءَ، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقة يُحَوِّلُ الماء بِمِسْحَاته، فقال له: يا عبدالله، ما اسْمُكَ؟ قال: فلان - للاسم الذي سمع في السحابة - فقال له: يا عبدالله لم سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعتُ صوتا في السحاب الذي هذا ماؤهُ يقول: اسق حديقة فلان -لاسمك- فما تصنعُ فيها؟ قال: أمَّا إذ قُلْتَ هذا فإني أنظرُ إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكلُ أنا وعيالي ثُلُثا، وأَرَدُّ فيها ثُلُثَهُ**». رواه مسلم في صحيحه.

٥- عن ابن عبَّاسٍ قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لمّا أُسريَ بي مرت بي رائحةٍ طيبةٍ، فقلت: ما هذا الرائحة؟ قالوا ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مشطها من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي هو ربُّك وربُّ أبيك، قالت: أَوَلَكِ ربٌّ غير أبي؟! قالت: نعم، فدعاها فقال: ألك ربٌّ غيري؟! قالت: نعم، ربي وربُّك الله، فأمر**

ببقرة من نحاس فأُحْمِيَت، ثم أمر بها لتُلْقَى فيها وأولادها، فألقَوْا واحدًا واحدًا حتى بلغ رضيعًا فيهم، فقال: قَعي يا أُمَّه ولا تقاعسي، فإنّك على الحقِّ». رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، وأبو يعلى، والبيهقي، وصَحَّحَهُ الحاكم، وابن حِبَّان، وغيرهما.

٦- عن أبي سعيد الخدري: أنّ أسيد بن حضير بينما هو يقرأ ليلة في مِرْبَدِه، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضًا، قال أسيد: فخشيتُ أنْ تطأ يحيى -ابنه- فقمتُ إليها، فإذا هو مثل الظُّلة فوق رأسي فيها أمثال السُّرُج، عَرَجَت في الجوّ حتى ما أراها، فغدوت على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فقلتُ: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدٍ لي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**اقرأ يا ابن حضير**» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضًا فقال: «**اقرأ يا ابن حضير**» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضًا، فقال «**اقرأ يا ابن حضير**» قال: فانصرفْتُ، وكان يحيى قريبا منها، فخشيت أنْ تَطَأَه، فرأيت مثل الظُّلة فيها أمثال السُّرُج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**تلك الملائكة كانت تَتَسَمَّع لك ولو قرأْتَ، لأصبَحَتْ يراها الناس، ما تستتر منهم**». رواه الشيخان، ورواه مسلم من حديث البراء بن عازب.

وكان أسيد بن حضير حَسنَ الصوت، كما في رواية أَبِي عُبَيد، عن أُبَيّ بن كعب، وجاء في رواية الإسماعيلي: أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال له: «**اقرأ أسيد فقد أُوتيتَ من مزامير آل داود**»، وكان يقرأ في تلك الليلة سورة البقرة، كما في رواية البخاريِّ.

ووقع نظير هذه الكرامة لصحابيٍّ آخر، اسمه ثابت بن قيس بن شماس، فروى أبو عبيد في "فضائل القرآن"، عن جرير بن يزيد: أنّ أشياخ أهل المدينة حدّثوه: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس، لم تزل داره البارحة تُزهر مصابيح؟! قال: «**فلعلّه قرأ سورة البقرة**» قال: فسُئل ثابت، فقال: قرأتُ سورة البقرة.

٧- عن أنس: أن أسيد بن حضير ورجلًا من الأنصار، تحدَّثا عند رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، حتى ذهب من الليل ساعة، في ليلةٍ شديدةِ الظُّلمة، ثم خرجا وبيد كلٍ منهما عصاه، فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر، فمشى كل منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله. رواه عبدالرزاق -وهذا لفظه- وأحمد، والبخاري، والحاكم، وغيرهم، وفي رواية للأخيرين تعيين الرجل من الأنصار بأنه: عباد بن بشر.

٨- روى مالك، عن عبدالرحمن بن أبي صعصعة، أنّه بَلَغَه أنّ عمرو بن الجموح وعبدالله بن عمرو الأنصاري -والد جابر- كانا في قبرٍ واحد، وهما ممن استُشْهِد يوم أُحُد، فحَفَر السيل قبرهما، فحُفِرَ عليهما ليُغَيَّرَا من مكانهما فوُجِدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرح فوضع يده على جرحه، فدُفِن وهو هكذا، فأشيلت يده عن جرحه ثم أُرسلت، فرجعت كما كانت، وكان بين أُحد وبين ما حفر عليهما ستة وأربعون سنة.

وروى البغوي، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: كتب معاوية إلى عامله بالمدينة: أن يُجْري عَيْنا إلى أُحد، فكتب إليه عامله: إنها لا تجرى إلا على

قبور الشهداء، فكتب إليه: أنْ أَنْفِذْها، قال جابر: فرأيتهم -يعني شهداء أُحُد- يخرجون علىٰ رقاب الرجال، كأنهم رجالٌ نُوَّم، حتىٰ أصابت المِسْحَاة قَدَم حمزة رضي الله عنه، فانبعثت دمًا.

وهذه القصة بلغت حد الاستفاضة أو التواتر، لأنّ عامِلَ معاوية نادىٰ في المدينة يحضّ الناس أنْ يخرجوا لنقل موتاهم، فخرج مَنْ لا يُحصىٰ مِنَ الأنصار وغيرهم، وشاهدوا هذه الكرامة العجيبة، بعد بضع وأربعين سنة من استشهادهم رضي الله عنهم.

٩- روىٰ مالك في "الموطأ" بإسناد علىٰ شرط "الصحيحين": أنّ أبا بكر رضي الله عنه استرجع عند وفاته أرضًا كان وهبها لعائشة رضي الله عنها، وقال -يُطَيّب خاطرها-: إنما هما أخواك وأختاك -أي لم أسترجع الأرض الموهوبة إلا لمصلحة الورثة الذين هم إخوتك- قالت لأبيها رضي الله عنهما: إنما هي أسماء فمن الأخرىٰ؟ -أي ليس لي أخت غير أسماء فمن الثانية؟- فأجابها الصدّيق رضي الله عنهما: ذو بطن بنت خارجة- هي امرأته وكانت حاملًا- أراها جارية، فولدت بعد وفاته بنتًا.

١٠- روىٰ الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح -كما قال الحافظ الهيثمي- عن سعيد بن عبدالعزيز، أنّ عمار بن ياسر رضي الله عنهما أقسم يوم أُحُد فهُزِم المشركون، وأقسم يوم الجمل -اسم موقعة- فَغَلبوا أهل البصرة، وقيل له يوم صِفّين -بكسر الصاد والفاء المشددة، موضعٌ كان فيه قتال بين عليّ عليه السلام وبين معاوية- لو أقسمت؟، فقال: لو ضربونا بأسيافهم حتىٰ نبلغ سعفات هجر لعلمنا أنّا علىٰ الحقّ وهم علىٰ الباطل، فلم يقسم، فقتل يومئذ.

وقال يوم أُحُد:

أقسمتُ يا جِبريلُ ويا مِيكَال
لا يغلبنا مَعْشَرٌ ضُلَّال
إنّا علىٰ الحقِّ وهم جُهَّال

وقد أخرج الطبراني في "الأوسط"، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**كَمْ مِن ذي طِمْرَينِ لا ثوبَ له، لو أَقْسَمَ على الله لأَبرَّه، منهم عمَّار بن ياسر**».

وباب الكرامات بحر خضمٌّ مترامي الأطراف، وفي كتابنا "الحجج البينات في إثبات الكرامات" استيفاء بالغ لكثير من أنواعها المتعدِّدة فعليك بقراءته.

حلقات الذكر

للحافظ السيوطي -رضي الله عنه- في هذا الموضوع رسالة اسمها "نتيجة الفكر في الجهر بالذكر" قال في أولها: «الحمد لله وكفىٰ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ، سألتَ أكرمك الله عما اعتاده السادة الصوفية من عقد حِلق الذكر، والجهر به في المساجد، ورفع الصوت بالتهليل، وهل ذلك مكروه أو لا؟

الجواب: أنه لا كراهة في شيءٍ من ذلك، وقد وردت أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر، وأحاديث تقتضي استحباب الإسرار به، والجمع بينهما: أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، كما جمع النووي بمثل ذلك بين الأحاديث الواردة باستحباب الجهر بقراءة القرآن، والأحاديث

الواردة باستحباب الإسرار بها». ثم أورد خمسة وعشرين ما بين حديث وأثر، نقتطف منها ما يلي:

١- روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**يقول الله تعالى أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإن ذكرني في نَفْسِهِ ذكرته في نَفْسِي وإن ذكرني في ملإٍ ذَكَرتُهُ في ملإٍ خيرٍ مِن مَلَئِهِ**».

قال: «والذكر في الملإ لا يكون إلَّا عن جهر». **قلت**: والحديث رواه بقية الستة إلَّا أبا داود.

٢- روى البزار بإسناد صحيح، عن ابن عبَّاسٍ، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إذا ذكرتني خاليًا ذكرتك خاليًا وإذا ذكرتني في ملإٍ ذكرتك في ملإٍ خيرٍ مِن الذين تذكرني فيهم**».

٣- روى الشيخان- واللفظ لمسلم- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**إنَّ لله تبارك وتعالى ملائكةً سيَّارةً فُضُلًا يبتغون مجالس الذِّكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذِكْرٌ قعدوا معهم، وحفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملئوا ما بينهم وبين السماء، فإذا تفرَّقوا عَرَجُوا وصَعِدُوا إلى السماء، فيسألهم الله عزَّ وجلَّ -وهو أعلم- من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادِكَ في الأرضِ، يُسبِّحونك ويُكبِّرونك ويهلِّلونك ويَحمدونك ويسألونك، قال: فما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنَّتك، قال: وهل رَأوا جنَّتي؟ قالوا: لا، أي ربِّ، قال: وكيف لو رأوا جنَّتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: وممَّ يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا ربِّ، قال: وهل رَأَوْا ناري؟ قالوا: لا، قال:**

فكيف لو رَأَوْا ناري، قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال: يقولون: ربِّ فيهم فلان عبدٌ خَطَّاءٌ، إنما مَرَّ فجلس معهم، فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهم».

٤- روى البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتَعوا**»، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة، قال: «**حِلَق الذِّكر**». قلت: رواه الترمذي وحسَّنه.

٥- روى الطبراني، وابن جريرٍ عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف، قال: لمّا نَزَلَت على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم -وهو في بعض أبياته- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الكهف: ٢٨]، فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مَن أمرني أن أَصْبِرَ نفسي معهم**».

وروى أحمد في "الزهد"، عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فَمَرَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فَكَفُّوا، فقال: «**ما كنتم تقولون؟**» قلنا: نذكر الله، قال: «**إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحْبَبْتُ أنْ أُشارككم فيها**»، ثم قال: «**الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مَن أُمرت أنْ أَصْبِرَ نفسي معهم**». قلت: للحديث طرقٌ كثيرة.

ثم قال السيوطي: «إذا تأمَّلْتَ ما أوردنا من الأحاديث، عرفت من

مجموعها أنه لا كراهة البتّة في الجَهرِ بالذكر، بل فيه ما يدل علىٰ استحبابه إما صريحًا أو التزامًا، وأما معارضته بحديث: «خير الذِّكر الخفيِّ» فالجمع بينهما: بأن الإخفاء أفضل حيث خافَ الرياء، أو تأذّىٰ به مصلُّون أو نيام، والجهر في غير ذلك أفضل لأنّ العمل فيه أكثر، ولأنَّ فائدته تتعدىٰ إلىٰ السامعين، ولأنه يُوقظ قلب الذاكر ويجمع همّه ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد في النشاط، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث.

فإنْ قلتَ: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، قلتُ: الجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها مكّية كآية الإسراء ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقد نزلت حين كان النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يجهر بالقرآن، فيسمعه المشركون فيسُبُّون القرآن ومَن أنزله، فأُمر بترك الجهر سدًّا للذريعة، كما نهىٰ عن سبِّ الأصنام لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقد زال هذا المعنىٰ الآن، أشار إلىٰ ذلك ابن كثير في "تفسيره".

الثاني: أنَّ جماعةً من المفسِّرين، منهم: عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وابن جريرٍ، حَملوا الآية علىٰ الذاكر حالة قراءة القرآن، وأنه أمْرٌ له بالذكر علىٰ هذه الصفة تعظيمًا للقرآن أنْ تُرفع عنده الأصوات، ويؤيده اتصالها بقوله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]

الثالث: ما ذكره الصوفية: أنّ الأمر في الآية خاصٌّ بالنبيِّ صلَّىٰ الله عليه

وآله وسلَّم، الكامل المُكمَّل، وأما غيره ممن هو محل الوساوس والخواطر الرديئة، فمأمورٌ بالجهر لأنه أشد تأثيرًا في دفعها، فإن قلت: فقد قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقد فُسِّر الاعتداء: بالجهر في الدعاء.

قلت: الجواب من جهتين:

أحدهما: أنَّ الراجح في تفسيره أنه تجاوز المأمور به، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه، والحاكم وصَحَّحَه: عن أبي نعامة: أنَّ عبدالله بن مُغَفَّلٍ سمع ابنه يقول: اللهمَّ إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، فقال: إني سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**سيكون في هذه الأُمَّة قومٌ يعتدون في الدُّعاء**». فهذا تفسير صحابي، وهو أعلم بالمُراد.

الثاني: علىٰ تقدير التسليم، فالآية في الدعاء لا في الذِّكر، والدعاء بخصوصه الأفضل فيه السِّر، لأنه أقرب إلىٰ الإجابة، ولذا قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣]، ومِن ثَمَّ استُحِبَّ الإسرار بالاستعاذة في الصلاة اتفاقًا؛ لأنها دعاء.

فإن قلت: فقد نُقِل عن ابن مسعود أنه رأىٰ قوما يهلّلُون برفع الصوت في المسجد، فقال: «ما أراكم إلَّا مبتدعين»، حتىٰ أخرجهم من المسجد، قلت: هذا الأثر يحتاج إلىٰ بيان سنده ومَن أخرجه مِن الأئمَّة الحفَّاظ في كتبهم؟، وعلىٰ تقدير ثبوته فهو مُعارَضٌ بالأحاديث الكثيرة الثابتة المتقدمة، وهي مقدمة عليه عند التعارض.

ثم رأيتُ ما يقتضي إنكار ذلك عن ابن مسعودٍ، قال الإمام أحمد في كتاب "الزهد": حدَّثنا حسين بن محمد المسعودي، عن عامر بن شقيق، عن أبي وائل قال: هؤلاء الذين يزعمون أنّ عبدالله كان ينهىٰ عن الذكر، ما جالستُ عبدالله مجلسًا قط إلَّا ذكر الله فيه، وأخرج أحمد في "الزهد": عن ثابت البناني قال: «إنَّ أهل ذكر الله ليجلسون إلىٰ ذكر الله وإنّ عليهم من الآثام أمثال الجبال، وإنهم ليقومون من ذكر الله تعالىٰ ما عليهم منها شيء».

هذا ملخَّص رسالة "نتيجة الفكر"، وهي مطبوعة بتعليقاتي عليها، فليراجعها مَن أرادها.

الذكر بالاسم المفرد

اعترض بعض الفقهاء علىٰ الصُّوفية عنايتهم بالاسم المفرد ولَهَجِهِم به زاعمًا أنّ الذكر به بدعة وأنه لا يشتمل علىٰ جملة مفيدة مثل الأذكار الواردة نحو: «لا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر»، وإلىٰ غير ذلك، وقد تولَّىٰ الرد علىٰ هذا الاعتراض مولانا الشيخ الإمام الوالد -رضي الله عنه- في بحثٍ وافٍ كافٍ ننقله بنَصّه من مجموعة فتاواه وبحوثه في علوم مختلفة.

قال -تغمده الله برضوانه-: «الحمد لله، ما نقله الحطاب آخر باب الردّة مِن شرحه لـ"مختصر خليل" مِن أنَّ عزَّ الدين بن عبدالسلام سُئل عمَّن يذكر بصيغة: «الله الله» مقتصرًا علىٰ ذلك، هل هو مثل: سبحان الله، والحمد لله؟ إلخ. فأجاب بقوله: «هذه بدعة لم تُنقل عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ولا عن أحد السلف...» إلخ.

مردود من وجوه:

أولها: ما ورد في "صحيح مسلم"، من قوله عليه الصلاة والسلام: « **لا تقوم الساعة حتى لا يَبْقى من يقول: الله الله**» وفي رواية له: «**حتى لا يقول أحد: الله الله**»، فإنّ هذا الحديث الشريف شاهد لذكره وتكراره كما ترىٰ، ولا سيما علىٰ رواية النصب، وقد ردَّ جماعةٌ مِن المحقِّقين به علىٰ ابن عبدالسلام، منهم: سيدي عبدالقادر الفاسي، والعارف الشعراني، وابن عبدالسلام بناني، وجماعة يطول ذكرهم.

ثانيها: أنّا لا نُسَلِّم أنَّ الذكر لا يكون إلا جملة، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]بناء علىٰ أنَّ المُراد بالدعاء الذكر والتسمية.

ثالثها: أنّا وإنْ سلَّمْنَا أنَّ الذكر إنما يكون جملة، فقَوْل الذاكر: «الله الله»، جملةً تقديرًا، إذ معناه: يا الله، أو الله أعظم، أو الله أكبر، أو نحو ذلك، وحذف النداء مع غير المندوب والمُضْمَر والمُسْتَغاث جائز اتفاقًا، كما في الألفية.

رابعها: ما ورد في بعض الأحاديث من أنَّ العبد إذا قال: الله، يشهد له كل من يسمعه. ذكره ابن زكري، والعهدة عليه.

خامسها: تواطُؤ السادات الصُّوفية علىٰ ذكره والاستهتار به -أي الولوع به- سلفهم وخلفهم، وهم من الصِّدِّيقين، وقد قالوا: «إذا اختَلَفَت أقاويل العلماء فعليك بما قاله الصِّدِّيقون منهم»، لمزيد نورهم وكمال عرفانهم وقربهم من الله ورسوله، والسادات الصُّوفية لا خلاف عندهم في ذكره، بل لا يصح

عندهم الفتح والسير في المقامات إلا بواسطته، ولهم فيه تآليف وترتيبات على حسب الأحوال والمقامات.

قال العارف المحقق شهاب الدين أحمد الغزالي: «ما دمت ملتفتًا إلى ما سوى الله، فلابد لك من النفي والإثبات بلا إله إلَّا الله، وما دمت تعتمد على رياسة العلم والجاه، فلابد لك من النفي والإثبات بلا إله إلَّا الله، وما دمت ترى في الوجود سواه، فلابد من لا إله إلَّا الله، فإذا غبتَ في الكلِّ عن الكلِّ، استوحشت من نفي لا إله، ووقفت على إثبات إلا الله، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال العارف الشعراني في "المنن": «ومِما منّ الله به عليَّ، مواظبتي -أول دخولي لطريق القوم- على ذكر الله بلفظ الجلالة الله، أربعًا وعشرين ألف مرة كل يوم وليلة، على عدد الأنفاس الواقعة في الليل والنهار، ليكون حُكْمي -إن شاء الله- حُكم مَن لم يغفل عن الله نفسًا واحدًا، ثم قال: قال الشيخ محيي الدين: وينبغي لمن يذكر الله بلفظ الجلالة أن يحقق الهمزة ويُسَكِّن الهاء، فإن فتح الهاء وأسقط الهمزة ووصل الهاء باللام المدغمة، كان تلفظه بها كتلفظه بكلمة: هلا، فلا يُفتح عليه بشيءٍ، لأنه تعالى ما هو مُسمى بذلك الاسم ثم قال: وصورة الذكر بالجلالة أن يقول: «الله الله»، حتى ينقطع نَفَسُه».اهـ

وذكر أبو علي الدقَّاق أنَّ رجلًا كان يقول: «الله الله» دائمًا، فأصاب حجر رأسه فشجه فقطر منه الدم وكتب على الأرض: «الله الله».

وبقي النوري في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم وهو

يقول: «الله الله الله»، فأُعلم الجُنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا؟ فقالوا له: إنه يصلِّي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلًا.

وسُئل الشبلي: لم تقول: «الله الله»، ولا تقول: لا إله إلَّا الله؟ فقال: لا أبغي له ضدًّا، فقال السائل: أريد أعلى مَن هذا، فقال أخشى أن أوخذ بين وحشية النفي والإثبات، فقال أريد أعلى من هذا فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] فزعق السائل ومات، فتعلق أولياؤه بالشبلي فقال لهم: روح دُعِيت فسمعت، فلبَّت وأجابت، فما ذنبي؟ فقال الخليفة: خلّو سبيله، لا ذنب له.

قال العارف أبو الوفاء: «وتعليل هذا المذهب أنَّ نفي الشيء إنما يحتاج إليه عند حضور ذلك الشيء بالبال، فمن لا يخطر بباله شريك لا يُكلَّف نفي الشريك، والكامل لا يخطر بباله ولا بخياله إلَّا الله، فيكفيه أن يقول: الله الله».اهـ

وقال القطب الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «ليكن ذكرك: الله الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور، وليس النور مقصودًا لذاته بل لما يقع به من الكشف والعيان، فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على سائر الأذكار، لتَضَمُّنه لجميع ما في لا إله إلَّا الله من العقائد والعلوم والآداب والحقوق، فإنه يأتي في: (الله)، وفي: (هو)، ما لا يأتي في غيرهما من الأذكار».اهـ

قال الشيخ زروق: «ولهذا اختاره المشايخ ورجَّحوه على سائر الأذكار، وجعلوا له خَلَوَات، ووصلوا به إلى أعلى المقامات والولايات، وإنْ كان منهم من اختار في الابتداء: لا إله إلا الله، وفي الانتهاء: الله الله».اهـ

وقال ابن حجرٍ في "الفتاوىٰ الحديثية": «ذكر لا إله إلَّا الله أفضل مِن ذكر الجلالة مطلقًا بلسان أهل الظاهر، وأما عند أهل الباطن فالحال عندهم يختلف باختلاف حال السالك، فمن هو في ابتداء أمره ومقاساة شهود الأغيار وعدم انفكاكه عن التعلُّق بها يحتاج إلىٰ النفي والإثبات حتىٰ يستولىٰ عليه سلطان الذكر، فإذا استولىٰ عليه فالأولىٰ له لزوم الإثبات أعني: الله الله».اهـ باختصار.

وقال الجنيد: «ذاكر هذا الاسم ذاهبٌ عن نفسه متصلٌ بربه قائمٌ بأداء حقِّه ناظرٌ إليه بقلبه، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته».اهـ

قال الشيخ محيي الدين: «ومن أراد أنْ يُفتح عليه بذكر هذا الاسم الشريف، فليتخذ خلوة وليترك سائر الأذكار والأوراد غيره، ولا يذكره من حيث أنه يدل علىٰ العين فقط، بل لابد أنْ يستحضر أنه يذكر من لا تحصره الأكوان، ومَنْ له الوجود المطلق التام، فبهذا الاستحضار تحصل الثمرة، التي هي النور الذي يقع به الشهود والعيان، وهذا الاستحضار هو المعبَّر عنه بالبساط».اهـ

وفي صلاة القطب مولانا عبدالسلام بن مشيش: «الله الله الله». ثلاث مرات، أفيجترئ أحدٌ أنْ يفوه في ذلك بعيب أو طعن وريب؟! كلا، وكيف وأصول الشريعة لا تأباه، ولا تدل علىٰ خروجه عن ذكر الله لفظًا ولا معنىٰ، إلىٰ غير هذا من نصوص أولياء الله الدالة علىٰ استحباب ذكره.

قال شيخ الشيوخ سيدي عبدالقادر الفاسي -بعد كلام في هذا المعنىٰ-: «ولا يخفىٰ هذا علىٰ من له ممارسة باصطلاحهم، فيكفينا التسليم والتصديق لما قصرت عنه مداركنا من مذاهبهم:

فاشْدُدْ يَدَيْكَ علىٰ تَسْلِيمِ مـا فَعَلُـوا وظـنَّ خـيرًا ولا تَعْبَـأْ بمَـنْ عَـذَلا

إذ التصديق بطريقهم ولاية، والاعتراض عليهم جناية، قال: وليس في كلام عزّ الدين تصريح بإنكار أو بغيره، بل غاية ما قال: أنه لم يُنقَل عن السلف، وكم من أشياء لم تنقل عن السلف وهي مشروعة، إذ البدعة تنقسم إلىٰ الأقسام الخمسة كما هو معلوم، فلا ينبغي الإنكار علىٰ من يذكر هذا الاسم الشريف، ولا التوقف فيه».اهـ كلام سيدي عبدالقادر الفاسي، وهو وحده كافٍ في رد كلام ابن عبدالسلام، والله تعالىٰ أعلم».اهـ

قلت: ثبت عن بلال رضي الله عنه الذكر بالاسم المفرد، قال أبو داود: قُرئ علىٰ سلمة بن شبيب وأنا شاهد، قال: حدَّثنا عبدالرزاق: حدّثنا مَعْمَر، عن عطاء الخراساني قال: كنت عند سعيد بن المُسيّب فذكر بلالًا فقال: كان شحيحًا علىٰ دينه، فإذا أراد المشركون أن يقاربهم قال: «الله الله»، وذكر بقية الحديث في شراء أبي بكر رضي الله عنه بلالًا وإعتاقه.

وثبت عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وأبو بكر، وعمار، وأُمُّه سمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر رضي الله عنه فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وأصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم علىٰ ما أرادوا، إلا بلالًا فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان علىٰ قومه، فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد».

وهذا خبر مشهور، وَرَدَ في كتب السيرة بطرق، فكيف يقال بعد هذا: إنّ الذكر بالاسم المفرد لم ينقل عن السلف؟! على أنّ الأوامر التي حضّت على ذكر الله في الكتاب والسنّة -وهي كثيرة- تشمل الذكر بالاسم المفرد لا محالة، فاشتراط وروده بعينه -رغم شمول مطلق الأوامر له- تعسُّف يأباه الإنصاف، ونريد أن نقول -زيادة على ما تقدم-: أنّ الشارع أَذِنَ في إنشاء أذكار من بنات أفكار الذاكر، بل حضَّ عليها: فروى الطبراني في "الأوسط" بسندٍ جيد -كما قال الحافظ الهيثمي- عن أنس: أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مَرَّ بأعرابيّ وهو يدعو في صلاته ويقول: يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا بحر ما، في قعره، ولا جبل ما، في وَعرِه، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتيمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه. فلما فرغ من صلاته، دعاه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وَوَهَبَ له ذهبًا أُهدِي له من بعض المعادن، وقال: «**وهبتُ لك الذَّهبَ بحُسْنِ ثنائِكَ على الله عزَّ وجلَّ**».

فتأمَّل هذا الحديث، تجده يأذن في إنشاء أذكار وأدعية، من غير تقيد بالوارد، بل يمكننا أن نقول: كل ما أنشأه الصوفية من أذكار وأوراد وأدعية، فهو من قبيل الوارد لدخوله في عموم هذا الحديث، وبالله التوفيق.

موقف العلماء من الصوفية

علمتَ -فيما سبق أول الكتاب- أن الدين ينبني على ثلاثة أركان: الإيمان، الإسلام، الإحسان، وأنّ التصوّف هو مقام الإحسان، وأنّ المقامات والأحوال التي يتكلَّم فيها الصوفية كلها واردة في الكتاب أو السنّة بالعبارة الصريحة أو الإشارة الواضحة، وأنّ الصحابة -خصوصًا منهم أهل الصُّفَّة- كانوا متخلِّقين بأخلاق الصوفية، وكذلك التابعون وتابعوهم وهَلُمَّ جَرا، وعلى هذا: فلا عجب أنّ يكون موقف علماء المسلمين من الصوفية موقف التأييد والتعاضد والمساندة، وكان الأئمّة أهل الفقه والكلام، وأكابر أعلام الإسلام -كما يقول الحافظ السيوطي- يصحبون أهل الطريق، ويحضرون مجالس وعظهم ويبالغون في الثناء عليهم، وينقلون عباراتهم وإشاراتهم في دروسهم وتصانيفهم.

وإليك بعض الأدلة على ذلك:

١- نقل الإمام زروق في قواعده، والتتائي: عن الإمام مالك أنه قال: «مَن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومَن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومَن جمع بينهما فقد تحقَّق».اهـ

فانظر كيف اعتبر الإمام مالك رضي الله عنه التصوّف والفقه جزأين متلازمين لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

٢- قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «صحبت الصوفية، فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية: سوى ثلاث كلمات، قولهم: «الوقت سيف إنْ

لم تقطعه قطعك»، وقولهم: «نفسك إنْ لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل»، وقولهم: «العدم عصمة». نقله الحافظ السيوطي وغيره، والإمام الشافعي يعدُّه الصوفية من الأبدال.

٣- روىٰ الحاكم، والخطيب-بسند صحيح- عن إسماعيل بن إسحاق السرَّاج قال: قال لي أحمد بن حنبل: يبلغني أنَّ الحارث هذا -يعني المحاسِبي- يُكْثِر الكَوْن عندك، فلو أحضرته منزلك وأجلستني في مكان أسمع كلامه، ففعلتُ، وحضر الحارث وأصحابه، فأكلوا وصلُّوا العتمة، ثم قعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت إلىٰ قريب نصف الليل، ثم أخذ الحارث في الكلام، وكأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، فمنهم من يبكي، ومنهم من يخرّ، ومنهم مَن يزعق، وهو في كلامه، فصعدتُ الغرفة فوجدت أحمد قد بكىٰ حتىٰ غُشِي عليه، فلما تفرَّقوا، قال أحمد: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا، وعلىٰ هذا، فلا أرىٰ لك صحبتهم».اهـ

قال الحافظ ابن حجرٍ في "تهذيب التهذيب": «إنما نهاهُ عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم، فإنه مقام ضيِّقٌ لا يسلكه كل أحد، ويخاف علىٰ مَن يسلكه ألَّا يوفيه حقَّه».اهـ

وقال الحافظ الخطيب أيضًا في "تاريخ بغداد": أخبرنا أبو عبدالرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري: أنبأنا محمد بن الحسين السلمي قال: سمعت محمد بن الحسن البغدادي يحكي عن ابن الأعرابي قال: قال أبو حمزة: «كان الإمام أحمد بن حنبل يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفيّ؟».

قلت: كفىٰ بهذا القول من الإمام أحمد ردًّا علىٰ مُـقلِّديه، كابن تيمية

وأذنابه الذين ينكرون على الصوفية، ويرمونهم بالكفر والإلحاد.

هذا، وأما ما اشتهر بين كثير من الناس أنّ الشافعي وأحمد اجتمعا بشيبان الراعي وسألاه عن أشياء في الصلاة والزكاة، فليس بصحيح، لأن الإمامين لم يدركا زمن شيبان، بل كانا بعده كما في "المقاصد الحسنة" للحافظ السخاوي.

٤- كان أبو العباس بن سُريج -أحد أئمة الشافعية- يحضر مجلس الجُنَيد ويسمع كلامه، ويقول: «أشهد أنّ لهذا الكلام صولةٌ ليست بصولة مبطل».

وروى القُشيري في "الرسالة"، والخطيب في "تاريخ بغداد"، من طريق أبي الحسين علي بن إبراهيم الحداد قال: «حضرت مجلس أبي العباس بن سريج فتكلَّم في الفروع والأصول بكلامٍ حسنٍ أُعجبت به، فلما رأى إعجابي قال: هذا ببركة مُجالستي لأبي القاسم الجُنَيد».

٥- ذو النون المصري أحد أئمة الصوفيّة وعظمائهم، قال الحافظ أبو سعيد بن يونس في "تاريخ مصر": «كان عالمًا، فصيحًا، حكيمًا، أصله من النوبة، وقال الحافظ مسلمة بن قاسم: كان رجلًا صالحًا، زاهدًا، عالمًا، ورعًا، متفننًا في العلوم، واحدًا في عصره، ولم يَسْلَم من نقد الجَهلة واعتراضاتهم، ولهذا قال الحافظ الذهبي في "الميزان": كان -ذو النون- ممن امتحِن وأوذي، لكونه أتاهم بعلمٍ لم يعهدوه، كان أول من تكلَّم بمصر في ترتيب الأحوال في مقامات الأولياء، فقال الجهلة: هو زنديق، قال السلمي: لما مات أَظَلَّت الطيور جنازته».اهـ

ومثله في"لسان الميزان" للحافظ ابن حجرٍ العسقلاني، وهذه الشهادة من هذين الحافظين الكبيرين تدمغ أعداء الصوفية -خصوصًا الحانقين- بالجهل.

٦- ذكر التاج السُّبكي في "طبقات الشافعية": عن ابن السمعاني أنه روىٰ بسنده: أنّ أبا القاسم القشيري -صاحب الرسالة القشيرية- حجّ سنةً من السنين، وقد حجّ في تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض، فأرادوا أن يتكلَّم واحد منهم في حرم الله، فاتفق الكل علىٰ الأستاذ أبي القاسم، فتكلَّم هو باتفاقٍ منهم.

٧- ذكر التاج السُّبكي أيضًا، أنَّ الأئمة كانوا يحضرون مجالس أبي نصر عبدالرحيم بن أبي القاسم القشيري، وهو صوفي كأبيه، وممن كان يحضر دروسه في الكلام: الإمام أبو إسحاق الشيرازي فقيه العراق، وشيخ الشافعية علىٰ الإطلاق، قال السُّبكي أيضًا: «ومما عُظِّم به أبو نصر: أنّ إمام الحرمين -وهو عصريه- نقل عنه في "كتاب الوصية" من "النهاية" وهذا فخار لا يعدله شيء».اهـ

٨- قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله -وهو من فقهاء المالكية ومشايخ الصوفية- في كتاب "لطائف المنن": «سمعت الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد -وهو إمامٌ مجتهد- يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وقال أيضًا: وأخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر، قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عزُّ الدين بن عبدالسلام، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القُشيري -هو والد تقي الدين بن دقيق العيد -والشيخ مجد الدين الإخميمي، والشيخ محيي الدين بن سراقة، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، ورسالة القشيري تُقرأ عليهم وهم يتكلَّمون، والشيخ أبو الحسن صامت، إلىٰ أنّ فرغ كلامهم، فقالوا: يا سيدي نريد أنّ نسمع كلامك، فقال: أنتم سادات

الوقت وكبراؤه، وقد تكلَّمتم، فقالوا: لابد أنْ نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلَّم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عزُّ الدين - وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه-: اسمعوا هذا الكلام الغريب، القريب العهد من الله». اهـ

قلت: كان اجتماع هؤلاء الأعلام في المنصورة سنة (٦٤٨هـ) لحضور المعركة الفاصلة بين المسلمين والصليبين، وقد انتهت بانكسارهم وأُسر لويس التاسع ملك فرنسا، ويؤخذ من هذه القصة احترام العلماء -خصوصًا سلطان العلماء وتلميذه ابن دقيق العيد- للصوفية في شخص أبي الحسن الشاذلي زعيم الطائفة ومُجدد رسومها، كما يؤخذ منها اشتراك الصوفية في الواجبات الدينية كالجهاد وغيره مما يعود على المجتمع الإسلامي بالخير العميم، وإذا لاحظنا أن الشاذلي حضر تلك المعركة بعد أنْ كُفَّ بصره، وجاء يسعى إليها من الإسكندرية، علمنا ما كان يأخذ به الصوفية أنفسهم من التمسك بعزائم الأمور، ومَشاق الأشياء، ولا غَرْو في ذلك، فهم أهل عزيمة صادقة، وهمة خارقة، وحزمٍ لا يلين، وجدٍ في العمل والدأب متين، وكأنما عناهم الشاعر بقوله:

علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ وتأتي علىٰ قَدْرِ الكرامِ المَكارِمُ
وتَعْظُمُ في عينِ الصَّغيرِ صِغَارُهَا وتَصْغُرُ في عينِ العظيمِ العَظائِمُ

٩- كان العلماء الأجلاء يحضرون دروس تاج الدين بن عطاء الله السكندري، وكانت حلقات دروسه في الأزهر أرحب الحلقات، يرتادها أعظم الجماعات، وممن أخذ عنه طريق الشاذلية وتخرج به في التصوف: الإمام

الحافظ المجتهد قاضي القضاة تقي الدين السُّبكي، وقرأ عليه كتاب "الحكم" له، وقال فيه: «إنه متكلِّم الصوفية على طريق الشاذلية».

وعلى ذكر كتاب "الحكم" نقول: إنّ العلماء اعتنوا به قراءةً وشرحًا ونظمًا، فكان يُدَرّس في الأزهر إلى عهد قريب، وآخر مَنْ أَقرأه: شيخنا عالمُ مصر ومفتيها، الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي رحمه الله، وكان يُدَرِّس أيضًا بجامع القرويين بفاس، وهو أكبر معهد علمي بشمال أفريقيا، بُني قبل الأزهر بخمسين سنة، وحضر فيه أئمة أعلام مثل: ابن خلدون، والمُقري صاحب "نفح الطيب"، أمّا شروح الحكم فلا تكاد تُحصى كثرة، ولقد شرحه الشيخ زروق ثلاثين شرحًا، وشرحه العلامة المحقق الشيخ الطيب بن كيران شرحًا مؤَيَّدًا بالسُّنَّة، فأعقب كل حِكمةٍ بحديثٍ يؤيِّد معناها، وهو شرحٌ نفيسٌ يقع في مجلدين، ومن شروح الحكم: شرح جدنا الإمام، الولي الكبير، والقطب الشهير، أبي العباس أحمد بن عجيبة الحسني المتوفى سنة (١٢٢٤هـ)، وهو شرحٌ عظيمٌ، يقلُّ نظيره بين الشروح على كثرتها، ونَظَم "الحِكَم" جماعة كثيرون، منهم شقيقنا الأكبر الحافظ أبو الفيض السيد أحمد بن الصديق، وفي "دائرة المعارف الإسلامية" أنّ "الحكم" تُرجمت وشُرحت باللغة التركية وغيرها.

١٠- ذكر العلامة القاضي أبو عبدالله محمد الطالب ابن الحاج في "حاشية المرشد المعين" -وهو منظومة في التوحيد والفقه المالكي والتصوف-: «أنّ غالب من يشار إليه من علماء الظاهر، ممن له تميز وشفوف ونبوغ في الحفظ

والإتقان، إنما نال بمخالطة بعض العارفين، كابن سُريج بمخالطة الجُنيد، والعز بن عبدالسلام بمخالطة أبي الحسن الشاذلي، والتقي بن دقيق العيد بمخالطة أبي العباس المرسي».اهـ

والأدلة كثيرة جدًّا على أنَّ العلماء كانوا يعتبرون التصوَّف مِن الدِّين، ويعدُّون الصوفيّة مِنَ الصفوة المُختارين.

تمَّ بحمد الله

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلِّ اللهمَّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه الطِّيبين الطَّاهرين.

٢- حُسْنُ التلطُّفِ
في بيانِ وجوبِ سلوكِ التصوُّفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي منحَ أولياءَهُ جَزيلَ عطائِهِ، ووهبَ أصفياءَهُ جليلَ حِبائِهِ، تجلَّىٰ لهم بمظهرٍ مِن مظاهرِ أسمائِهِ، فتاهت عقولهم في مشاهدة عظمته وكبريائه، وطافت أرواحهم هائمةً في قُدسِ سَنائِهِ، وأفناهم عن أنفسهم فلم يشاهدوا سِواه في أرضه وسَمائِهِ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له شهادةً ندَّخرها ليوم لقائه، ونستوْجِب بها جميل جَزائه، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّدًا عبده ورسوله أفضل رُسُله وأنبيائه، أفاض عليه مولاه من أنواع العلوم والمعارفِ ما تَنوء الجبالُ الشُمُّ بحمل أعبائه، صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم صلاةً وسلامًا خالديْن مع خلود الدهر باقييْن بعد فنائه، ورضي الله عن آله الكرام حُماة الدِّين الدافعين عنه بالسيف والبرهان حملات أعدائه، وعن أصحابه الفِخام، والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ قيام الساعة وساعة القيام.

أما بعد: فإنَّ التصوف كبيرٌ قَدْرُه، جليلٌ خطره، عظيمٌ وَقْعُه، عميقٌ نَفْعُه، أنواره لامعة، وأثماره يانعة، واديه قريعٌ خصيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يُزَكِّي النَّفس من الدَّنَس، ويُطَهِّرُ الأنفاسَ من الأرجاس، ويُرقِّي الأرواح إلىٰ مراقي الفلاح، ويُوصِلُ الإنسانُ إلىٰ مرضاة الرحمن.

وهو إلىٰ جانب هذا ركن من أركان الدين، وجزء متممٌ لمقامات اليقين، خلاصته: تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كل الشؤون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب أو مُقاربة محظور.

كثرت أقوال العلماء في تعريفه، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه،

وذلك دليل على شرف اسمه ومُسمَّاه، يُنبئ عن سموِّ غايته ومرماه.

فقيل: «التصوف: الجِدُّ في السلوك إلى ملك الملوك».

وقيل: «التصوف: الموافقة للحق، والمفارقة للخَلق».

وقيل: «التصوف: ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة».

وقيل: «التصوف: الرغبة إلى المحبوب في درك المطلوب».

وقيل: «التصوف: حفظ الوفاء وترك الجفاء».

إلى غير هذا من الأقوال التي تبلغ نحو ألفٍ، حكاها الحافظ الصوفيُّ أبو نعيمٍ الأصفهانيُّ في كتابه "حِليةُ الأولياء".

وسُئل الإمام أبو القاسم الجُنيد -سيِّد الطائفة- عن التصوف، فقال: «تصفية القلب عن موافقة البَريّة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشريّة، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلُّق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبديّة، والنُصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتّباع الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الشريعة».اهـ

ولعل هذا أبلغ ما قيل في التصوف وكَشْف حقيقته.

وإنْ كانت الأقوال السابقة مختلفة في اللفظ والمبنى، فهي متفقة في الغاية والمعنى، وإنما عبَّر كلُّ قائل بحسب مَدْرَكِه ومشرَبه.

وعلى نحو اختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه، فقال الإمام أبو عليٍّ الرُّوذَبارِيُّ -وقد سُئل عن الصوفي-: «من لبس الصوفَ على الصَفا، وأطعمَ الهوى ذوقَ الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك

منهاج المصطفىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم».

وقال الإمام سهل بن عبدالله التُّسْتَرِيُّ: «الصوفي من صفا عن الكَدَر، وامتلأ من الفِكَر، وانقطعَ إلىٰ الله من البشر، واستوىٰ عنده الذهب والمَدَر».

وأنشد الإمام تقي الدين السُّبكي:

تنازع النَّاسُ في الصُّوفيِّ واختلفوا قِدْمًا وظنُّوه مُشْتقًّا مِن الصُّوفِ

ولستُ أَنْحَل هذا الاسمَ غير فتًىٰ صافىٰ فصُوفِي حتَّىٰ لُقِّبَ الصُّوفي

وهذان البيتان لأبي الفتح البُستي.

وقال العلامة الشيخ محمد ميارة المالكي في "شرح المرشد المعين": «وفي اشتقاق التصوّف أقوال، إذ حاصله اتصافٌ بالمحامد وترك للأوصاف المذمومة، وقيل: من الصفاء».

وقال المحقق أبو حفص الفاسي المالكي: «ظهر لي أنه منسوب إلىٰ الصوف، لأنه في الغالب شِعاره ودِثاره، ولأن هذا اللفظ -يعني لفظ صوفي- مشتمل علىٰ ثلاثة أحرف منقطعة من ثلاث كلمات دالة علىٰ ثلاث معان هي أوصافه المختصة به: فالصاد من الصفاء، والواو من الوفاء، والفاء من الفناء».

قال العلامة ابن الحاج: وقد أشرت إلىٰ ذلك في ثلاثة أبيات، فقلت:

صَفا منهلُ الصُّوفيِّ عن عِلَلِ الهوىٰ فما شابَ ذاك الوردَ مِن نفسِهِ حَظٌّ

ووَفَىٰ بعهدِ الحبِّ إذ لم يكن له إلىٰ غير مَن يهوىٰ التفاتٌ ولا لحظُ

محَتْ آيةَ الإظلامِ شمسُ نهارِهِ وقد ذهبتْ منه الإشارةُ واللفظُ

إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تجدها مسطورةً في كتب القوم.

فصل

والتَّصوُّف مبنيٌّ على الكتاب والسنَّة كما قال الجنيد: «عِلمنا هذا مُشيَّد بالكتاب والسنَّة». وقال أيضًا: «الطَّريق إلى الله تعالى مسدودٌ على خلقه إلا المقتفين آثار رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم».

وقال التَّاج ابن السُّبكي في "جمع الجوامع": «ونرى أنَّ طريق الشَّيخ الجنيد وصحبه طريقٌ مُقوَّمٌ».

قال جلال الدين المحليُّ في "شرحه": «فإنَّه خالٍ من البدع دائرٌ على التَّسليم والتَّفويض والتَّبري من النَّفس».

وقال سهل بن عبدالله -أحد أئمَّة القوم: «أصولنا سبعة أشياء: التمسُّك بكتاب الله سبحانه وتعالى، والاقتداء بسنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب المعاصي، والتَّوبة، وأداء الحقوق».

وقال أبو العبَّاس أحمد المُلثَّم -أحد أئمَّة القوم: «لم تكن الأقطاب أقطابًا، والأوتاد أوتادًا والأولياء أولياءً، إلَّا بتعظيمهم رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ومعرفتهم به وإجلالهم لشريعته وقيامهم بآدابه».

وقال شيخ الشّيوخ أبو الحسن الشَّاذليُّ الغُماريُّ رضي الله عنه: «من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فهو مُدَّع».

وقال أيضًا: «ليس هذا الطّريق بالرَّهبانيَّة ولا بأكل الشَّعير والنُّخالة وإنَّما هو بالصَّبر على الأوامر واليقين في الهداية قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال أيضًا: «ما ثَمَّ كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السُّنَّة فمن أُعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبدٌ مفترٍ كذَّابٌ، أو ذو خطإٍ في العلم بالصَّواب كمن أُكرم بشهادة الملك فاشتاق إلى سياسة الدَّوابِّ».

ونصوصهم في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا يعسر تتبُّعها.

وحكى العارف الشعرانيُّ في مقدِّمة "الطبقات": «إجماع القوم على أنَّه لا يصلح للتصدُّر في طريق الله -عزَّ وجلَّ- إلا من تبحَّر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها، وخاصَّها وعامَّها، وناسخها ومنسوخها، وتبحَّر في لغة العرب حتَّى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك». اهـ

والحكمة في هذا الإجماع الذي حكاه الشعرانيُّ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الشخص إذا تصدَّر للمشيخة، والإرشاد اتَّخذه المريدون قُدوةً لهم ومَرجعًا يرجعون إليه في مسائل دينهم وغيرها فإذا لم يكن مُتقنًا لعلم الشَّرع مُتبحِّرًا فيه أَضَلَّ المريدين بفتواه فأحلَّ لهم الحرام وحرَّم عليهم الحلال وهو لا يَشعر، وقد تَعرُض لأحد المريدين مسألةٌ عويصةٌ في الطلَّاق، أو البيوع، أو الميراث، ويرجع فيها إلى شيخه الذي لا يُتقن الشَّرع فيفتيه بما يتراءى له فيقع الشَّيخ والمريد في الخطأ والضَّلال وهما لا يشعران.

وأيضًا فأغلب البدع والخرافات إنَّما دخلت في الطّريق بسبب المشايخ الذين تصدَّروا بغير علمٍ، ونصَّبوا أنفسهم للإرشاد من غير أن يكونوا مُستحقِّين لهذا المنصب الجليل؛ ولولا ذلك لبقي الطَّريق نقيًّا سليمًا كحاله على عهد الجنيد وبشر الحافيِّ والحارث بن أسد المحاسبيِّ وأضرابهم.

فصل

ولكون التَّصوف مبنيًّا على الكتاب والسنَّة دخل فيه عُظماء العلماء، وانضمَّ إلى زُمرة أهله فُحولٌ من الكبراء: كالحافظ أبي نعيمٍ، والإمام عزِّ الدين بن عبدالسَّلام، والحافظ ابن الصَّلاح، والإمام النوويِّ، وتقيِّ الدِّين السُّبكي، وابنه تاج الدِّين السُّبكي، والحافظ السُّيوطيِّ، وغيرهم.

قال الشَّافعيُّ: «صحبت الصُّوفيَّة فاستفدت منهم كلمتين: قولهم: الوقت سيفٌ إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتك بالباطل».اهـ

وتكلَّم أبو العبَّاس ابن سُريج في درسه مرَّةً بكلامٍ حسنٍ أعجب الحاضرين فقال: «هذا ببركة مُجالستي لأبي القاسم الجنيد».

وقال شيخ الإسلام زكريَّا الأنصاري -وهو صوفيٌّ-: «إذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم فهو فقيهٌ جافٌّ».

وكان الإمامُ الكبير أبو المحاسن يوسف الفاسيُّ -أحد رجال سلسلة الطَّريقة الصِّديقيَّة- تلميذ القطب الكبير سيِّدي عبدالرحمن المجذوب وعلى يديه فُتح عليه وصار جامعًا بين العلم والولاية، وكذلك العلَّامة الإمام عبدالواحد بن عاشر الأنصاريُّ كان تلميذًا للعارف الكبير الشيخ محمَّد التجيبيِّ الشَّهير بابن عزيز.

قال العلَّامة ابن الحاج: «وغالب من يُشار إليه من علماء الظَّاهر ممَّن له تميُّز وشُغُوف ونُبوغ في الحفظ والإتقان إنَّما نال بمخالطة بعض العارفين، كابن

سُريج بمخالطة الجنيد، والعزِّ بن عبدالسَّلام بمُخالطة أبي الحسن الشَّاذليِّ، والتَّقيِّ ابن دقيق العيد بمُخالطة أبي العبَّاس المرسيِّ». اهـ

وكذلك العلَّامة المحقِّق الشيخ أحمد بن المبارك اللَّمَطي شيخ علماء عصره كان تلميذًا للقطب الكبير سيِّدي عبدالعزيز الدبَّاغ الحسنيِّ، ونقل عنه من المواهب والأسرار ما أثبت بعضه في كتاب "الإبريز".

وهكذا لا تجد عالمًا كبيرًا ومُحقِّقًا شَهيرًا، إلَّا دخل في طريق القوم والتمس البركة من أهلها، ونال الحُظوة بسبب الانتساب إليها، وهذا أمرٌ معلومٌ يُدركه مَن قرأ تراجم العلماء وتتبَّع سيرهم واستقصىٰ أخبارهم، ومن لم يعرف ذلك أو لم يعتد به فهو جاهلٌ مُتعنِّتٌ لا اعتداد به ولا عبرة بما يقول.

فصل

وسلوك طريق التَّصوُّف واجبٌ محتَّمٌ؛ لا يكمل دين المرء إلَّا به، وبيان ذلك من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدِّين الثلاثة المُبيَّنة في حديث جبريل الطَّويل، ولا شك أنَّ الدِّين يجب اتِّباعه بجميع أركانه: الإيمان، والإسلام، والإحسان.

وجاء في إحدىٰ فتاوىٰ والدي رضي الله عنه في هذا الموضوع ما نصُّه: «وأمَّا أول من أسَّس الطَّريقة، وهل تأسيسها بوحيٍ، فلتعلم أنَّ الطَّريقة أسَّسها الوحي السَّماويُّ في جملة ما أسَّس من الدِّين المحمَّديِّ؛ إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدِّين الثلاثة، التي جعلها النَّبيُّ صلَّىٰ الله

عليه وآله وسلَّم بعد ما بيَّنها واحدًا واحدًا دينًا فقال: «**هذا جبريل جاء يُعلِّمكم دينكم**». فغاية ما تدعو إليه الطَّريقة وتُشير إليه هو مقام الإحسان، بعد تصحيح الإسلام والإيمان؛ ليُحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة، الضَّامنة لمُحرزها والقائم بها السَّعادة الأبديَّة في الدنيا والآخرة؛ والضَّامنة أيضًا لمُحرزها كمال الدِّين فإنَّه -كما في الحديث- عبارةٌ عن الأركان الثلاثة؛ فمن أخلَّ بمقام الإحسان الذي هو الطَّريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنًا من أركانه؛ ولهذا نصَّ المحقِّقون علىٰ وجوب الدُّخول في الطَّريقة، وسلوك طريق التَّصوُّف وجوبًا عينيًّا، واستدلُّوا علىٰ الوجوب بما هو ظاهرٌ عقلًا ونقلًا ولسنا الآن بصدد بيان ذلك.

وقد بيَّن القرآن العظيم من أحوال التَّصوُّف والطَّريقة ما فيه الكفاية، فتكلَّم علىٰ المراقبة والمحاسبة والتَّوبة والإنابة والذِّكر والفكر والمحبَّة والتوكل والرِّضا والتَّسليم والزُّهد والصَّبر والإيثار والصِّدق والمجاهدة ومُخالفة الهوىٰ والنَّفس، وتكلَّم عن النَّفس اللَّوامة والأمَّارة والمطمئنَّة، وعلىٰ الأولياء والصَّالحين والصِّديقين والمؤيَّدين، وغير هذا ممَّا يتكلَّم فيه أهل التَّصوُّف والطَّريقة رضي الله عنهم فاعرف وتأمَّل». اهـ وهو نفيسٌ جدًّا.

الوجه الثاني: أنَّ التَّصوُّف هو العلم الذي تكفَّل بالبحث عن عِلل النُّفوس وأدوائها، وبيان علاجها ودوائها؛ لتصل إلىٰ مرتبة الكمال والفلاح وتدخل في ضِمن قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]ولا شك أنَّ علاج النَّفس من أمراضها وأدرانها أمرٌ يوجبه الشَّرع القويم ويستحسنه العقل السَّليم، ولولا ذلك لما كان هناك فرقٌ بين الإنسان والحيوان.

الوجه الثالث: أنَّ التَّصوُّف عُنِي بتهذيب الأخلاق وتزكيتها، ومخالفة هوىٰ النَّفس والأخذ بعزائم الأمور، والارتفاع بالنَّفس عن حضيض الشَّهوات إلىٰ حيث تتمتَّع بما تورثه الطَّاعة من لذَّة روحية تَصغُر بجانبها كُلُّ لذَّةٍ مهما عَظُم قدرها.

الوجه الرابع: أنَّ التَّصوُّف هو خلق الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصَّالح، الذي أُمِرنا بالاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، وقد بيَّن ذلك والدي رضي الله عنه في فتواه التي نقلنا منها آنفًا، فقال عقب كلامه السَّابق ما نصه: «وأمَّا قولك هل أسست الطريقة...إلخ، فجوابه يُعلم ممَّا قبله، فإنَّها إذا كانت من الدِّين -بل وهي أشرف أركانه- وكانت بوحيٍ كما قلناه، وكان الصَّحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم تواترًا من المُسارعة إلىٰ امتثال أمر الله، كانوا بالضَّرورة أوَّل داخلٍ فيها، وعاملٍ بمقتضاها، وذائق لأسرارها وثمراتها، ولهذا كانوا علىٰ غاية ما يكون من الزهد في الدنيا، والمجاهدة لأنفسهم، ومحبَّة الله ورسوله والدّار الآخرة، والصَّبر والإيثار والرِّضا والتَّسليم، وغير ذلك من الأخلاق التي يُحبها الله ورسوله، وتوصل إلىٰ قُربهما، وهي المُعبَّر عنها بالتَّصوُّف والطَّريقة، وكما كانوا رضي الله عنهم علىٰ هذه الحالة الشّريفة كان أتباعهم أيضًا عليها وإن كانوا دونهم فيها وكذلك كان أتباع الأتباع وهلمَّ جرًّا، إلىٰ أن ظهرت البدع وتأخَّرت الأعمال، وتنافس النَّاس في الدنيا وحَيَت النُّفوس بعد موتها؛ فتأخَّرت بذلك أنوار القلوب، ووقع ما وقع في الدِّين وكادت الحقائق تنقلب، وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولىٰ من الهجرة، ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد سنة، إلىٰ أن وصل ذلك إلىٰ حالةٍ تَخوَّف منها السَّلف الصَّالح علىٰ

الدِّين، فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدِّين الشَّريف، فقامت طائفةٌ منهم بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده، وقامت أُخرىٰ بحفظ مقام الإيمان وضبط أُصوله وقواعده علىٰ ما كان عند سلفهم الصَّالح، وقامت أُخرىٰ بحفظ مقام الإحسان وأعماله وأحواله.

فكان من الطَّائفة الأولىٰ الأئمَّة الأربعة وأتباعهم -رضي الله عنهم- وكان من الطَّائفة الثانية الأشعريُّ وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه، فعلىٰ هذا ليس الجنيد هو المؤسِّس للطَّريقة لما ذكرناه من أنَّها بوحيٍ إلهيٍّ؛ وإنَّما نسبت إليه لتصدِّيه لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخُّر عنها؛ ولهذا السبب نفسه نُسبت العقائد للأشعريِّ والفقه للأئمَّة الأربعة مع أنَّ الجميع بوحيٍ من الله تعالىٰ». اهـ

وهو تحقيقٌ بالغٌ يُعلم منه أنَّ ما يُسمَّىٰ الآن تصوُّفًا وطريقةً لم يتجاوز ما كان عليه الصَّحابة والتابعون من الأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة التي حَضَّ الله ورسوله علىٰ التخلُّق بها ومدَحَا أصحابَها في غير آيةٍ وحديثٍ.

الوجه الخامس: أنَّ في سلوك الطَّريق صحبة المشايخ الكُمَّل، والاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، وقد أمر الله بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] قال الإمام زرُّوق: والإنابة لا تكون إلَّا بعلمٍ واضحٍ، وعملٍ صحيحٍ، وحالٍ ثابتٍ لا ينقضه كتابٌ ولا سنَّةٌ.

الوجه السادس: أنَّ سلوك الطَّريق يُنوِّر بصيرة الشَّخص ويسمو بهمَّته؛ حتىٰ لا يَبقىٰ له تعلُّقٌ إلَّا بالله ولا يكون له اعتمادٌ إلَّا عليه؛ فيصير مصون السرِّ عن الالتفات إلىٰ الخلق، مرفوع الهمَّة عن تأميلهم اكتفاءً بالحقِّ مُتحقِّقًا

بالحقيقة في جميع الأحوال مُتوسِّمًا بالشَّريعة في الأقوال والأفعال.

وهذا أعلىٰ ما يُطلب من المؤمن، وإليه أشار عليه الصَّلاة والسَّلام بقوله لابن عبَّاسٍ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**». وبايع الصَّحابة - منهم ثوبان مولاه والصِّديق صاحبه- علىٰ ألَّا يسألوا النَّاس شيئًا؛ وذلك لرفع الهمَّة عن الخلق والاكتفاء بالالتجاء إلىٰ الحقِّ.

الوجه السابع: أنَّ في سلوك الطَّريق بصُحبة شيخٍ مُرشدٍ عارفٍ خروجًا من رعونات النَّفس، وحمايةً للمريد من كلِّ ما يمنعه من الوصول إلىٰ الله تعالىٰ من أنواع الجهل والغرور ودواعي الهوىٰ المُوقعة في ظُلمة القلب وإطفاء النور؛ ولهذا قال ابن عطاء الله في "لطائف المنن": «شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوىٰ ودخل بك علىٰ المولىٰ، شيخك هو الذي مازال يجلو مرآة قلبك حتَّىٰ تتجلَّىٰ فيه أنوار ربك، ونهض بك إلىٰ الله فنهضت إليه، وسار بك حتَّىٰ وصلت إليه، ولازال محاذيًا لك حتىٰ ألقاك بين يديه فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك».اهـ

وقال أيضًا: «إنَّما يكون الاقتداء بوليٍّ دلَّك الله عليه، وأطلعك علىٰ ما أودعه من الخصوصيَّة لديه، فطوىٰ عنك شهود بشريَّته في وجود خُصوصيَّته؛ فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرَّشاد يُعرِّفك برعونة نفسك، ويدلُّك علىٰ الجمع علىٰ الله، ويعلِّمك الفرار عمَّا سوىٰ الله، ويُسايرك في طريقك حتَّىٰ تصل إلىٰ الله. يوقِفك علىٰ إساءة نفسك ويُعرِّفك بإحسان الله إليك؛ فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشُّكر إليه والدَّوام علىٰ ممرِّ السَّاعات بين يديه»،

قال: «فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عَنْقَاء مُغْرِب!!

فاعلم أنَّه لا يعوزك وجود الدالِّين وإنَّما يعوزك وجدان الصِّدق في طلبهم. جِد صدقًا تَجِدْ مُرشدًا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] فلو اضطَّررت إلى من يُوصلك إلى الله اضطِّرار الظَّمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن؛ لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطَّررت إلى الله اضطِّرار الأمِّ لولدها إذا فقدته؛ لوجدت الحقَّ منك قريبًا ولك مُجيبًا، ولوجدت الوصول غير متعذِّر عليك ولتوجَّه الحقُّ بتيسير ذلك عليك».اهـ

الوجه الثامن: أنَّ في سلوك الطَّريق الإكثار من ذكر الله والاستعانة بصُحبة الشَّيخ على ذلك، ولا شكَّ أنَّ الذِّكر يُصفِّي القلوب ويدعو إلى اطمئنانها كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فإنَّ الله تعالى لم يقيِّده بحدٍّ ولا شرطٍ ولا نهايةٍ حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ – ٤٢]، وكلُّ أمْرٍ أَمَرَ الله به في القرآن جعل له حدًّا وشرطًا ونهايةً إلَّا الذِّكر.

فلهذه الوجوه التي ذكرناها وغيرها كان سلوك طريق التَّصوُّف واجبًا والانخراط في سلك أهله أمرًا لازمًا، ونحن لا ننكر أنَّه دخل في الطَّريق دُخلاء أدعياء وجُهلاء أغبياء، اتَّخذوا الطَّريق سُلَّمًا لتحصيل أغراضهم

وشهواتهم، وابتدعوا فيه بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وزعموا أنَّهم أهل الحقيقة يجوز لهم ما يكون مُحرمًا في الشَّريعة وكذبوا؛ فإنَّ الشَّريعة والحقيقة صِنوان وما خالفت الشَّريعةُ الحقيقةَ قَطُّ إلَّا في نظر جاهلٍ.

فمثل هؤلاء ليسوا من الصُّوفية في شيء، وأول من يبرأ منهم الصوفية، ومن الظُّلم البيِّن أن يعترض بعض النَّاس بفعل هؤلاء الجهلة ويجعله حُجَّة على التَّصوُّف والصُّوفيَّة؛ فما التَّصوُّف إلَّا اتِّباع الكتاب والسُّنَّة وما الصُّوفيَّة إلَّا قوم جاهدوا أنفسهم فهداهم الله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

تَمَّ حُسن التَّلَطُّفِ

في بيان وجُوبِ سُلُوك التَّصوُّف.

التصوف الإسلامي

١ - الإعلامُ بأنَّ التصوُّفَ مِن شريعةِ الإسلامِ

٢- حُسْنُ التلطُّفِ في بيانِ وجوبِ سلوكِ التصوُّفِ